سامي مروان مبيض

شرق الجامع الأموي

الماسونية الدمشقية ١٨٦٨ - ١٩٦٥



سامي مروان مبيض

شرق الجامع الأموي

الماسونية الدمشقية ١٨٦٨-١٩٦٥



East of the Umayyad Mosque:
Damascene Freemasonry 1868-1965
By: Sami Moubayed

First Published in January 2017

BEIRUT — LEBANON

elrayyes@sodetel.net.lb

www.elrayyesbooks.com

ISBN: 978-9953-647-8

الطبعة الأولى: كانون الثاني (يناير) ٢٠١٧

تصميم الغلاف والإخراج الفني: آرتيستو — علي الحاج حسن

المحتويات

إهداء

إلى الجميلة هلا، التي علمتني الكثير،
عن الحب والحياة والمستقبل.

مقدمة

خلال سنوات الطفولة والشباب سمعت الكثير من الروايات عن الماسونية وتاريخها في دمشق، بعضها قصص واقعية ودقيقة، والبعض الآخر كان من نسج خيال الدمشقيين. كانت الروايات أشبه بقصص ألف ليلة وليلة، وقد ينفع أن تكون سيناريو لمسلسل تلفزيوني مشوّق أو رواية بوليسية، فيها الكثير من المكر والإجرام والتآمر. كان هذا في ثمانينيات القرن الماضي يوم كان الناس يتحدثون همساً عند ذكر اسم «البنائين الأحرار» في مجالسهم الخاصة، خوفاً من الماسونيين أنفسهم. لأسباب شخصية، لم تقنعني كل تلك الروايات عن الماسون، فإثنان من أفراد عائلتي كانا من «العشيرة السرية»، جدي القاضي أحمد عزت الأستاذ وعم جدتي أمير الحج

الدمشقي ورئيس مجلس الشورى عبد الرحمن باشا اليوسف. الأول دخل في عشيرة الماسونية من خلال أحد محافل دمشق المحلية وترقى فيها ليصبح أستاذاً لمحفل أمية الكبير. أما الثاني فقد دخل الماسونية العثمانية من خلال أحد محافل عاصمة الخلافة الإسلامية عام ١٩٠٩. وقد أدركت منذ ذلك الوقت أن سيرة الرجلين لا تتناسب مع الانطباع العام عن الماسونيين في المجتمع السوري.

بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ صار الناس يصفون «البنائين الأحرار» بالخونة والمشعوذين أو بالجواسيس الموالين للصهيونية ولدولة إسرائيل. وعلى الرغم من أن الرجلين توفيا قبل أن أعرفهما، إلا أنني كنت أعرف سيرتهما الشخصية والمهنية جيداً، كان كلاهما من الوطنيين المخلصين لبلادهم ولدينهم، ولا يمكن أن يكونا مخربين ولا باعثين للفساد. فالأول كان راعياً للفنون، إضافة إلى عمله في المحاكم السورية، وقد أسّس معهد الموسيقى الشرقي مع نائب دمشق وزعيمها فخري البارودي في الخمسينيات. أما الثاني، فقد كان قائداً وحامياً للحجاج الدمشقيين خلال مسيرتهم السنوية الشاقة من عاصمة الأمويين إلى مكة المكرمة. لقد كان كلاهما من أنبل الناس خلقاً أو كرماً وعطاءً.

كبرتُ وفي ذهني الكثير من الأسئلة عن الماسونية وعن علاقتها بدمشق والدمشقيين. هل كان أحمد عزت الأستاذ وعبد الرحمن باشا حقاً من الوطنيين، أم أنهما خائنان لارتباطهما بالماسونية؟ هل غررت بهما الماسونية كما قال كثيرون؟ أم أن الماسونية الدمشقية كانت عبارة عن «موضة» إن صحّ التعبير، دخلها الناس دون معرفة كل جوانبها؟ هل كانت الماسونية

الدمشقية مختلفة عن الماسونية في العالم وبريئة من كل تلك التهم الموجهة إليها وحُمّلت أكثر بكثير من حجمها الحقيقي في تاريخ البلاد العربية؟

خلال سنوات الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت، اكتشفت أن نخبة القوم وأعيان كل من سورية ولبنان في الأربعينيات والخمسينيات كانوا أيضاً من عشيرة الماسون. قرأتُ الكثير يومها واستطعت الوصول إلى آخر الأحياء من الرعيل الأول من ماسون دمشق، هو الدكتور جورج لاذقاني من «محفل سورية ولبنان». كان التعارف من خلال صديق العائلة الطبيب نقولا شاهين، ابن الدكتور أنسطاس شاهين، أحد أبرز أركان الماسونية الدمشقية في النصف الأول من القرن العشرين. كان جورج لاذقاني طبيباً وضابطاً سابقاً في الجيش العثماني، خدم في معارك السفربرلك الشهيرة أيام الحرب العالمية الأولى، وعند لقائي به في دمشق عام ١٩٩٥ كان قد تجاوز المئة من العمر، ولكنه بقي بصحة جيدة متمتعاً بذاكرة حديدية.

طرحت كثيراً من الأسئلة عليه عن الماسونية وخفاياها، عندما صرح علناً بأنه من العشيرة، وأجاب عن معظمها دون ترددٍ أو خوف، مذكراً بأن الماسونيين الدمشقيين هم من أعلن استقلال سورية مرتين: الأولى عن الدولة العثمانية عام ١٩١٨، والثانية عن الانتداب الفرنسي عام ١٩٤٦. مع ذلك، لم تسعف إجاباته تساؤلاتي كلها، ولم تروِ عطشي لمعرفة المزيد، فإن كان الماسونيون شرفاء حقاً، فلماذا كل هذا التهجم عليهم؟ ولماذا لا يدافعون عن أنفسهم من كل الاتهامات الموجهة إليهم؟ ضحك الدكتور لاذقاني رحمه الله وقال: «عليك أن تقرأ أكثر يا بني لكي تعرف الحقيقة».

تبين لاحقاً أن أحد أساسيات الانضمام إلى الماسونية هو شرط عدم التبرير للآخرين أو الدخول في سجال عن الماسونية مع من هو خارج هذه الأخوة.

بعد اثنين وعشرين عاماً من ذلك اللقاء، أحاول الإجابة عن بعضٍ من تلك الأسئلة في هذا الكتاب، المزوّد بكثير من الوثائق والمستندات التي قمت بجمعها خلال السنوات الطويلة الماضية، بعضها مأخوذ من أرشيف المحافل العالمية نفسها، والبعض الآخر من الكتب والدراسات، دون الدخول بأي استنتاجات، لا دفـ١٦اعاً عن الماسون ولا تحقيراً لهم، لأننا في الحقيقة ما زلنا حتى اليوم لا نملك إلا نصف الحقيقة في هذا الموضوع، والنصف الآخر هو عبارة عن مجرد تكهنات أتركها لكم للإجابة عنها.

سامي مبيض

دمشق، ٨ أيلول ٢٠١٦



من هم ماسون دمشق؟

في تسعينيات القرن المنصرم كانت كتب الماسونية هي الأكثر مبيعاً في المكتبات العربية، وقد كان هذا الموضوع مشوّقاً للغاية، لدرجة أن السواد الأعظم من الناس يدّعون أنهم يعرفون الكثير عنه، من سائقي السيارات العامة في شوارع دمشق وبيروت والقاهرة، مرورًا بأساتذة الجامعات والكتّاب المرموقين، وصولاً إلى رجالات الدولة والسياسة. ولم تتوقف دور النشر العربية عن إصدار مؤلفات عديدة عن هذا الموضوع على مدى أربعة عقود متتالية من الزمن، ولم يكن يضاهي تلك المؤلفات في المبيع والرواج إلا كتب الطبخ والأبراج والجنس والدين.

ففي معرض الكتاب السنوي بدمشق مثلاً، الذي كان يُعَقد تحت رعاية رسمية من وزارة الثقافة السورية، كانت رفوف العارضين من دور النشر

تغصّ بكتب عربية عن الماسونية، يتشابه معظمها في ما يحمل من رسوم على أغلفتها تحتوي على أدوات الماسونية وشعاراتها مغمسة بما يرمز إلى الدم العربي جنباً إلى جنب مع نجمة داوود. وقد اتهمت معظم هذه الكتب الماسونيين باختراق الإسلام وتدميره منذ مقتل الإمام علي، وبإسقاط الدولة العثمانية، وباحتلال الفرنسيين لسورية والبريطانيين لمصر، وبسلخ تركيا للواء إسكندرون عن سورية عام ١٩٣٩، إضافة إلى جزم كل هذه الأدبيات بأن الماسونية كانت وحدها وراء احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، واحتلال بغداد عام ٢٠٠٣. بعدها جاء وثائقي موجه لقناة الجزيرة القطرية في نهاية التسعينيات ليعزز كل تلك الشكوك ويزيد من كراهية العرب للماسونية.

في السنوات الخمس الماضية ظهرت عدة دراسات إضافية توجه أصابع الاتهام إلى الماسونية العالمية في بثّ الفوضى والخراب من خلال ما يُسمى «الربيع العربي»، لتقول إن أساطينها كانوا وراء سقوط أنظمة الحكم في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن، وإنهم مهندسو الحرب الطاحنة الدائرة حالياً في سورية.

معظم تلك الاتهامات كانت بأقلام كتّاب يساريي الهوى والفكر، من شيوعيين وبعثيين وقوميين عرب، أو من إسلاميين متشددين، منهم طاقم الإخوان المسلمين في قناة الجزيرة. الجدير بالذكر أنه منذ منتصف الأربعينيات كان إخوان سورية ومصر من أشد أعداء الماسونية بسبب عقيدتها العلمانية الصارخة، وكذلك حلفاؤهم في حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، التي تسمي الماسونية بالاسم في ميثاقها، وتعتبرها واجهة للصهيونية العالمية.

في واقع الأمر، إن معظم هؤلاء الكتّاب كانوا يجدون في الماسونية كبش فداء حاضراً وبرّاقاً لتحميله أوزار فشلهم الذريع في الحكم والمعارضة على مدى عقود من الزمن. فمعظم البشر يبحثون دوماً عن شمّاعات جاهزة لتبرئة أنفسهم من الأخطاء ولتبرير ضعفهم وسوء تصرفاتهم، فاللوم عند العرب يقع دوماً على الآخر، سواء أكان حزباً أم دولةً أم عشيرةً سرية، إما على الإنكليز أو الفرنسيين أو الأميركيين أو الروس أو الصهاينة أو على الماسون، وليس على العرب أنفسهم. الماسونية كانت جاهزة دوماً لتحمل كل هذه الاتهامات، ولتبرر عقوداً من الإخفاقات الرسمية والفشل السياسي.

في هذا الكتاب نحن لا نبرئ الماسونية من كل المؤامرات، فبعضها موثّق ومعروف، مثل خلع السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٩، ولكن إنصافاً للتاريخ لا ينبغي أن نحمّل الماسونية الدمشقية المحلية أكثر ما تتحمل دون معرفة الشرط التاريخي والظروف المحيطة بأعضائها. الماسونية في دمشق كانت من البداية وحتى النهاية عبارة عن مجموعة صغيرة وضعيفة لتنظيم عالمي، تتبع إما إلى مصر ومن ثم إلى لندن، أو إلى محافل غير نظامية تركية. لم تكن تلك المحافل المحلية، من أمثال «قاسيون» و«سورية» و«نور دمشق» مرتبطة بما يعرف بـ«الحكومة العالمية في الظل» كما يعتقد الكثيرون، والدليل القاطع على هذا الكلام أن ماسون دمشق دمروا سياسياً واجتماعياً وخلعوا عن الحكم مراراً، وصودرت أرزاقهم وطُمست معالم إنجازاتهم، ولم تُرفَع يد واحدة في المجتمع الدولي دفاعاً عنهم وعن عشيرتهم المحلية. رئيس الحكومة جميل مردم بك، مثلاً، كان من الماسون، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً في الحفاظ على السنجق السوري عندما قررت فرنسا إعطاءه للأتراك سنة ١٩٣٩، وأخفق مرة أخرى في

الدفاع عن فلسطين حين توليه مسؤوليات حكومته الخامسة والأخيرة عام ١٩٤٨. الدكتور عبد الرحمن الشهبندر كان أيضاً من الماسون، ولكنه قتل برصاص الغدر عام ١٩٤٠، ولم تستطع الماسونية حمايته من الموت. كذلك الأمر مع رئيس الوزراء حقي العظم، الذي خسر انتخابات الرئاسة مرتين، بالرغم من نشاطه الماسوني العلني. القائمة تطول طبعاً، وسوف نجد شرحاً مفصلاً في طيات هذا الكتاب.

يجد الكتّاب العرب المتوجسون شراً من الماسونية مبرراً لموقفهم في الكثير من الإشارات والرموز الموجودة في الأدبيات الماسونية بغية تثبيت رواياتهم الهادفة إلى النيل من «العشيرة السرية». من تلك الرموز على سبيل المثال ورقة الدولار الأميركي النقدية، بما تحتويه من رموز ورسومات كرسم العين الواحدة (أحد أشهر رموز الماسونية)، ليقال إن الاقتصاد الأميركي يسيطر على العالم، وهو لا يخفي علاقته بالماسونية.

كان الرئيس الأميركي الأول جورج واشنطن ينتمي إلى الماسونية علناً، وقام بارتداء الوِزرة الماسونية في مراحل مختلفة من تدشين معالم مدينة واشنطن، عاصمة العالم الجديد التي حملت اسمه، والتي تمتلئ بالرموز الماسونية كمبنى وزارة الدفاع (البنتاغون). ولم يكن جورج واشنطن الماسوني الوحيد من النخب الأميركية، فالكثير من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأميركية كانوا من الماسون، كذلك كان بعض رؤساء أميركا في القرن العشرين مثل ثيودور وفرانكلن روزفلت بطل الحرب العالمية الثانية[1]. وفي بريطانيا كان معظم ملوكها كإدوارد السابع وجورج السادس من الماسون، إضافة إلى رئيس وزراء بريطانيا الأشهر ونستون تشرتشل، الذي انتمى إلى محفل

ستادهولم الإنكليزي عام ١٩٠٩. إن جميع من ذكرت أسماؤهم متهمون بالضرورة بالعمالة للصهيونية العالمية في غالبية كتب الماسونية العربية.

إن قائمة الماسون العالمية تطول وتشمل أسماءً كثيرة دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، ولا تقتصر فقط على السياسيين والحكام، بل تشمل العشرات من الضباط والموسيقيين، والعلماء والأمراء ورجال الدولة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. فعلى سبيل المثال، كثير من نجوم هوليوود في الأربعينيات مثل دوغلاس فيربانكس، وبطل فيلم «ذهب مع الريح» كلارك غيبل، وكيرك دوغلاس بطل فيلم «سبارتاكوس» كانوا من الماسون، وكذلك نجم الكوميديا أوليفر هاردي (شريك الثنائي لوريل وهاردي) الذي داعب «العشيرة الحرة» في أحد أفلامه الساخرة عام ١٩٣٣ [٢]. كذلك الملحن العالمي موزارت كان ماسونياً هو الآخر، ومعه نخبة المفكرين الفرنسيين في عهد النهضة، أبرزهم الفيلسوف الشهير فولتير، وكذلك المهندس الفرنسي غوستاف إيفيل، باني برج إيفل بباريس وفريدريك بارثولدي مصمم تمثال الحرية في نيويورك[٣].

في دمشق، لا تقلّ قائمة الماسونيين السوريين إبهاراً عن نظيرتها في لندن وواشنطن وباريس. فقبل مئة عام تقريباً، كانت الماسونية ذات شعبية كبيرة في سورية، ضمّت بين صفوفها معظم الآباء المؤسسين للدولة السورية. دخلوا الماسونية لأنهم نخبة القوم لا العكس، لم يصبحوا نخباً وزعماء بسبب ارتباطهم بالماسونية. أحد عشر من رؤساء الوزارة السوريين في عهد الانتداب الفرنسي وبداية الاستقلال كانوا من الماسون، ومعهم ثلاثة من وزراء خارجيتها، وعلى الأقل اثنان من رؤساء الدولة، الزعيم فوزي

سلو والعقيد أديب الشيشكلي. أما رؤساء الحكومات السورية من الماسون فهم: جميل الإلشي وفارس الخوري وعطا الأيوبي وحسن الحكيم وسعيد الغزي وصبحي بركات والداماد أحمد نامي وحقي العظم وجميل مردم بك ولطفي الحفار وبهيج الخطيب. بالإضافة إلى أن من المؤكد أن اثنين من رؤساء الجامعة السورية كانا ماسونيين، أيضاً، ومعهما معظم مؤسسي كلية الطب. وقد سميت شوارع وساحات ومدارس على شرف هؤلاء القامات الوطنية، وبعضهم حظي بطابع بريدي صادر رسمياً عن إدارة البرق والبريد في دمشق يحمل رسمه. ومن خلال هؤلاء الرجال نشطت الماسونية في دمشق رسمياً قرابة قرن كامل، من عام ١٨٦٨ وحتى عام ١٩٦٥، عندما صدر أمر موقع من قبل رئيس الدولة يومئذ محمد أمين الحافظ بإغلاق جميع المحافل الماسونية وحظر نشاط العشيرة الماسونية حظراً كاملاً.

أثارت المحافل الماسونية في دمشق الكثير من الجدل والشكوك لدى عامة الناس، حتى قبل قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. وقد تساءل الدمشقيون كثيراً عن سرية المحافل وما يجري في اجتماعاتها المغلقة. وكانت إجابات الماسون وقتها وحتى اليوم أنهم ليسوا جمعية سرية، بل جمعية «ذات أسرار»[٤]. خلال القرن التاسع عشر في بريطانيا، على سبيل المثال، كانت محاضر جلسات المحافل اللندنية تنشر في الصحف الرسمية، وفي دمشق كانت جميع المحافل مرخصة ومسجلة في سجلات الدولة، تدفع الضرائب دورياً مثلها مثل أي شركة أو جمعية أو حزب، وتقدم ميزانياتها السنوية للحصول على موافقات من وزارة المالية السورية[٥]. وكان من شروط الدخول إلى العشيرة الحرة حصول طالب الانتساب على ورقة «لا حكم عليه» من وزارة العدل السورية، ليثبت أن سجله العدلي خالٍ من أي جرم

أو جناية أمام القانون السوري. بعد عام ١٩٤٨، ظهرت عدة مقالات في الصحف السورية تتساءل عن مدى علاقة العشيرة الحرة بالدول الكبرى، وكان معظم هذه المقالات قد نشر في صحيفة «البعث» وصحف الحزب الشيوعي السوري وصحيفة «المنار» التابعة لحركة الإخوان المسلمين.

قبل ذلك التاريخ كان الماسون السوريون من نخبة المجتمع السوري، لا يجرؤ أحد على التشكيك في وطنيتهم، وكان بعضهم ينتمي إلى أسر دينية محافظة، بعمامته البيضاء وسجله العلمي الرفيع، والبعض الآخر كان من وجهاء المدينة من الملاكين العاملين في الدولة العثمانية أباً عن جد. أما الفئة الثالثة، فكانت من الطبقة الوسطى من أطباء ومحامين وكتّاب وصحفيين، معظمهم من أبناء المدن لا الأرياف. حتى يومنا هذا، لا يوجد أي قائمة موثقة تظهر توجهاً دينياً خاصاً للماسون السوريين، ولكن بالعودة إلى أسمائهم وأسماء عائلاتهم، نجد لفيفاً واسعاً من المسلمين السنّة والشيعة والعلويين والموحدين الدروز والمسيحيين بكافة طوائفهم. وقد كانت الماسونية السورية تفتخر بأنها جامعة لكل السوريين بمعزل عن دينهم أو عرقهم أو توجهاتهم السياسية والفكرية. وخلال حقبة العشرينيات والثلاثينيات، كان الماسون الدمشقيون يعلقون شهاداتهم الماسونية الرسمية بخطها الكوفي في مكاتبهم ومنازلهم دون أي خجل أو تحفظ، لا يحاولون إخفاء انتمائهم إلى عشيرة البنائين الأحرار.

أما الحفلات ومآدب العشاء الخيرية التي كانت تقيمها المحافل والشخصيات الماسونية، فقد كانت مناسبات علنية تندرج تحت عنوان «أخبار المجتمع» في الصفحات الأخيرة من الصحف الدمشقية، إذ كانت هذه الفعاليات

تعقد غالباً في نادي الشرق العريق لصاحبه الشهير توفيق الحبوباتي، الذي يقع مقابل مدرسة الفرنسيسكان في حيّ الشعلان الدمشقي. كان الناس يشاهدون صور تلك المناسبات في الصحف اليومية ويتعاملون معها على أنها تجمّع لعلية القوم، كأي نادٍ نخبوي، لا يشككون في أحد من أعضائه، لأن قائمة الحضور كانت لا تستثني أحداً من الأعيان الوطنيين المعروفين جيداً في المجتمع السوري.

عند إغلاق المحافل عام ١٩٦٥ تساءل الناس كيف لقامتين وطنيتين مثل فارس الخوري أو جميل مردم بك مثلاً أن تكونا عضوين في تنظيم مشبوه، وكان الجواب المعروف دوماً أن كليهما لم يكن على دراية بحقيقة الماسونية، ولو عرف أهدافها لانسحب منها أو لم يكن ليتسب إليها أصلاً. تؤكد الأديبة كوليت خوري حفيدة الرئيس فارس الخوري هذه النظرية، وتقول إن جدها منع والدها المرحوم سهيل خوري من الدخول في الماسونية، محذراً من أنها منظمة صهيونية بالمطلق، وأنه لم يكن يعرف أهدافها الحقيقية حين انتسب إليها أيام الشباب(٦). الكلام نفسه قاله الأب لويس شيخو، أحد مدرسي اللغة العربية في الجامعة اليسوعية في بيروت، الذي نشر سلسلة مقالات في جريدة «المشرق»، ثم وضع كتاباً قاسياً عن الماسونية بعنوان «السر المصون في شيعة الفرمسون» عام ١٩١٠، حذّر فيه من دخول العشيرة الحرة، متهماً إياها بتشجيع الفوضى السياسية وفرض سيطرتها على العالم(٧).

معظم أوراق الماسونية السورية أتلفها أصحابها بعد أسابيع قليلة من قيام جمهورية الوحدة مع مصر في شباط ١٩٥٨ (٨). كان الماسونيون الدمشقيون

يخافون رئيسهم الجديد جمال عبد الناصر، الذي كان يشكّك في صلات الماسونية الخارجية، على الرغم من أنه لم يغلق أياً من محافل دمشق أو القاهرة، ولم يحظر الماسونية في مصر حتى عام ١٩٦٤ [٩]. ولدت الجمهورية العربية المتحدة بعد خمسة عشر شهراً فقط من حرب السويس التي شنتها بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، رداً على تأميم قناة السويس، وكان عبد الناصر يستشيط غضباً من كل ما هو بريطاني أو فرنسي، لكونه أصلاً من أشد المتحمسين للقضية الفلسطينية منذ مشاركته في حرب عام ١٩٤٨. وبسبب تلك الخلفية الفكرية والسياسية للحاكم المصري الجديد، أدرك الماسونيون السوريون أن من الأفضل لهم عدم الدخول في سجال معه، خصوصاً أن من أحيط به من الساسة السوريين كانوا من أشد الأعداء للماسونية، وجاؤوا ليهمسوا في أذنه أن الماسونية العالمية سوف تهدد استقرار جمهورية الوحدة. أبرز المحرضين يومها كان العقيد عبد الحميد السراج، مدير المكتب الثاني في سورية، الذي أصبح وزيراً للداخلية أيام الوحدة، ورئيس المجلس النيابي أكرم الحوراني، الذي أصبح نائباً للرئيس عبد الناصر. بحكم فكره الاشتراكي المتطرف، كان الحوراني يكره طبقة الأثرياء والملاكين السوريين ويحقد عليهم، وكان معظم أعضاء تلك الطبقة متنسبين رسمياً إلى الماسونية السورية، وقد حمّلهم أوزار الفقر في الريف السوري وهزيمة الجيش في حرب فلسطين، وكان عراباً لكل الانقلابات السورية دون استثناء من عام ١٩٤٩ وحتى ١٩٦١.

أدرك الماسون الدمشقيون عدم الفائدة من الدخول في أي جدل مع الحوراني وحليفه السراج، وأيقنوا عدم وجود أي مجال لأي تعاون من الرئيس عبد الناصر، أو حتى في محاولة إقناعه بأن لا علاقة لهم بالصهيونية

العالمية، وأن كل ما أشيع عنهم منذ عشر سنوات عبارة عن كذب ممنهج من قبل المكتب الثاني، ففضلوا أن يغلقوا أبواب محافلهم طوعاً قبل أن تغلقها أجهزة دولة الوحدة الناشئة، وهكذا فعلوا في آذار ١٩٥٨، على الرغم من عدم صدور أي تشريع ضدهم طوال سنوات الوحدة، إلا أن بعض المحافل السورية عاودت العمل بشكل خجول في عام ١٩٦٠، أي خلال سنوات الوحدة[١٠].

أحرق الماسون الدمشقيون آنذاك بعض الوثائق تجنباً للمساءلة السياسية، بينما نُقل البعض الآخر من هذه الوثائق إلى بيوت الماسون، ليُحرق أيضاً بعد سنوات قليلة عند مجيء حزب البعث إلى الحكم في سورية[١١]. مع ذلك، لقد حاول بعض الماسون بناء جسور مع الرئيس عبد الناصر، وقاموا بإرسال عدة برقيات رسمية له عند إعلان الوحدة، نُشرت في جريدة «الأيام» الدمشقية ما بين ٢٢-٢٥ شباط ١٩٥٨. لم تلقَ أي من تلك البرقيات أي ردّ من عبد الناصر، على الرغم من أن شريكه في صناعة الوحدة، الرئيس شكري القوتلي، استقبل وفداً ماسونياً مصرياً في قصر المهاجرين بدمشق قبل مغادرته الحكم بأيام[١٢]. وبسبب الخوف الذي اجتاح المجتمع السوري خلال سنوات الوحدة وفي الستينيات، لم يبقَ إلا القليل القليل من الوثائق الماسونية إلى يومنا هذا. وهذا ما جعل دراسة الماسونية الدمشقية أمراً معقداً وصعباً للغاية، ولولا الوثائق القليلة الباقية وبعض الشهادات الحية لكان هذا البحث مستحيلاً.

لا يوجد أي سجل للعشيرة، لا في مكتبة الأسد في دمشق، ولا في مركز الوثائق الحكومي في فرنسا أو بريطانيا، ولم يأت أي من الماسونيين الدمشقيين على

ذكر انتمائهم إلى «العشيرة الحرة» في مذكراتهم. دولة حسني البرازي، الذي قضى آخر أيامه في بيروت، أجرى مقابلة طويلة لكلية التاريخ في الجامعة الأميركية مُسجلاً على إحدى عشرة ساعة صوتيّة، ولم يذكر ولو مرّةً واحدة انتماءه إلى محفل العاصي في مدينة حماه قبل توليه رئاسة الحكومة السورية أيام الحرب العالمية الثانية[١٣]. أما الرئيس فارس الخوري، فقد جمعت حفيدته الأديبة كوليت خوري أوراقه وصوره في كتابين قيّمين نهاية الثمانينيات ومتصف التسعينيات، يحكيان عن فترة الشباب والعمل السياسي حتى عام ١٩٢٥، ولم يأتِ «فارس بك» على ذكر دوره في «محفل نور دمشق» بداية القرن العشرين. حاله حال أقرانه في رئاسة الحكومة السورية، جميل مردم بك ولطفي الحفار وحسن الحكيم وسعيد الغزي وعطا الأيوبي. وقد نشرت مذكرات الحفار ومردم بك في لندن مطلع الألفية الثانية، ولم يأتِ أي منها على ذكر انتماء أصحابها إلى الماسونية، إذ لا وجود لأي إشارة إلى العشيرة، لا من قريب ولا من بعيد. أما الرئيس حسن الحكيم الذي عاش طويلاً حتى العقد الثامن من القرن العشرين، وقام بتأليف العديد من الكتب القيّمة والمذكرات، وهو أيضاً مثل كل أخوته في العشيرة الحرة، لم يذكر الماسونية في أيٍّ من كتاباته. هل كان هذا التستّر الواضح من كل هؤلاء الوطنيين خجلاً أم خوفاً أم حفاظاً على سرية العشيرة أم التزاماً منهم بقسم السرية؟ الجواب طبعاً لا يزال غير معروف.



القاضي حنا مالك بلباسه الماسوني الرسمي، في شبابه في العشرينيات وفي الخمسينيات عندما أصبح أميناً عاماً لرئاسة مجلس الوزراء ومدعياً عاماً للجمهورية السورية.

عضوان اثنان فقط من محافل دمشق امتلكا الجرأة ليعترفا على الملأ بحقيقة انتسابهما إلى العشيرة الحرة. الأول هو القاضي حنا مالك (١٩٠٠-١٩٩٢) الذي درس القانون في جامعة دمشق والجامعة الأميركية في بيروت وبدأ عمله في المحاكم السورية عام ١٩٢٥. عُين رئيساً للمحكمة الدستورية العليا ثم مدعياً عاماً للجمهورية السورية قبل أن يصبح أميناً عاماً لرئاسة مجلس الوزراء في عهد صديقه الرئيس صبري العسلي. كان «حنا بك»

رجل قانون من الطراز الرفيع، مُحترماً عالمياً لعلمه وعمله، وهو من أعيان الأرثوذوكس في مدينة دمشق. يصف «حنا بك» في مذكراته نشاطات الماسونية «الوطنية والاجتماعية والإنسانية» في سورية، ويقول إنه ووالده عبد الله مالك من قبله كانا من الماسون، كذلك ينشر صورتين له بلباسه الماسوني الرسمي، وهو برتبة «أستاذ أعظم».

الاعتراف الآخر جاء على لسان رئيس غرفة تجارة دمشق الحاج بدر الدين الشلاح (١٩٠٨-١٩٩٩)، الرئيس الأعظم لمحفل إبراهيم الخليل التابع لمحفل نيويورك الأكبر، الذي أُسس في العاصمة السورية في أيلول عام ١٩٢٤ على يد بروفيسور أميركي يعمل مدرساً في كلية الطب في الجامعة الأميركية في بيروت يدعى والتر آدامز[١٤]. بقي هذا المحفل الدمشقي نخبوياً ولم يقبل عضوية أكثر من ٨٠ شخصاً فقط طوال فترة عمله في دمشق، كان من بينهم كل من بدر الدين الشلاح وشقيقه أنور، وهو رجل أعمال عريق ووجيه معروف، بالإضافة إلى بعض من علية القوم مثل داوود مارديني ومصطفى القباني والطبيب مصطفى شوقي وعثمان سلطان والصيدلاني خليل الهيل وتوفيق بيضون وعبد الرزاق عابدين ورفيق الجلاد وعبد النبي قلعي[١٥]. في مذكراته المنشورة بدمشق عام ١٩٩٠ يبهر الحاج بدر الدين قراءه بصور تذكارية له مع جمال عبد الناصر وأنور السادات وحسني مبارك، والشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، والملك حسين بن طلال والرئيس الأميركي جيمي كارتر الذي زار مزرعة الشلاح في ريف دمشق خلال إحدى زياراته لسورية عام ١٩٨٣ بعد مغادرته البيت الأبيض. ويعرف السوريون بدر الدين الشلاح جيداً، ليس كشهبندر تجار دمشق فقط، ولكن لدوره الشهير في فك إضراب تجار العاصمة السورية المتضامنين مع جماعة الإخوان المسلمين

بداية الثمانينيات خلال حربهم مع الرئيس حافظ الأسد. مرتدياً معطفه الأبيض الطويل وطربوشه الأحمر الأنيق، نزل بدر الدين الشلاح إلى أسواق دمشق القديمة يومها وطرق باب متاجرها متجراً متجراً، آمراً الناس بإنهاء الاضراب، مستفيداً من مكانته عند تجار دمشق وسمعته الطيبة بين الناس.

نشر بدر الدين الشلاح في مذكراته صورتين له بوزرته الماسونية ومريوله الملون، الأولى بالأبيض والأسود أيام الشباب، والثانية وهو قد تجاوز الثمانين من العمر في بيته بدمشق، ضارباً عرض الحائط بما سيقال عنه في المجتمع الدمشقي بعد ثلاثة عقود من تحريم الماسونية في سورية. لم يتعرّض له أحد بعد نشر مذكراته، وبقي الحاج بدر الدين رئيساً لغرفة تجارة دمشق حتى عام ١٩٩٦.



صورة الحاج بدر الدين الشلاح، رئيس غرفة تجارة دمشق، بلباسه الماسوني الرسمي بعد عقود من حظر الماسونية الدمشقية، كما وردت في مذكراته المنشورة في دمشق عام ١٩٩٠.

الحاج بدر الدين الشلاح في شبابه باللباس الرسمي لمحفل إبراهيم الخليل في دمشق.



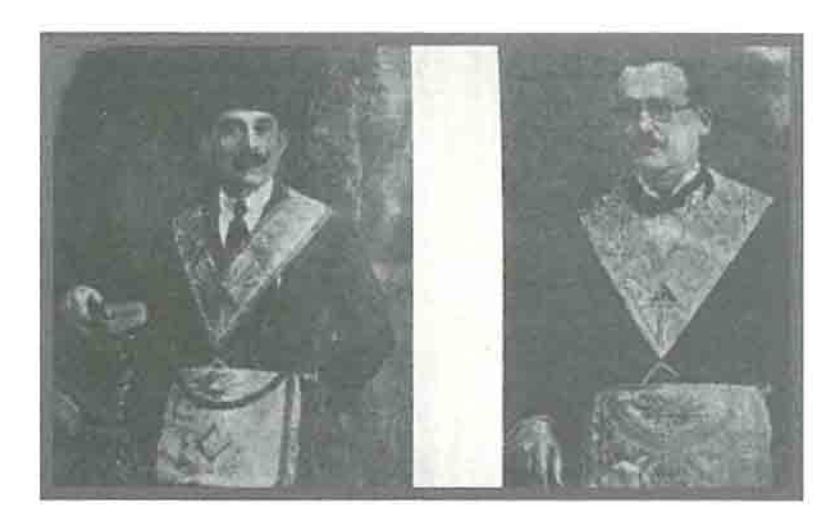
محفل إبراهيم الخليل التابع لمحفل نيويورك الأكبر وأعضاؤه بدمشق عام ١٩٥٢.



الحاج بدر الدين الشلاح ووفد من غرفة تجارة دمشق
في زيارة للرئيس أديب الشيشكلي عام ١٩٥٣.

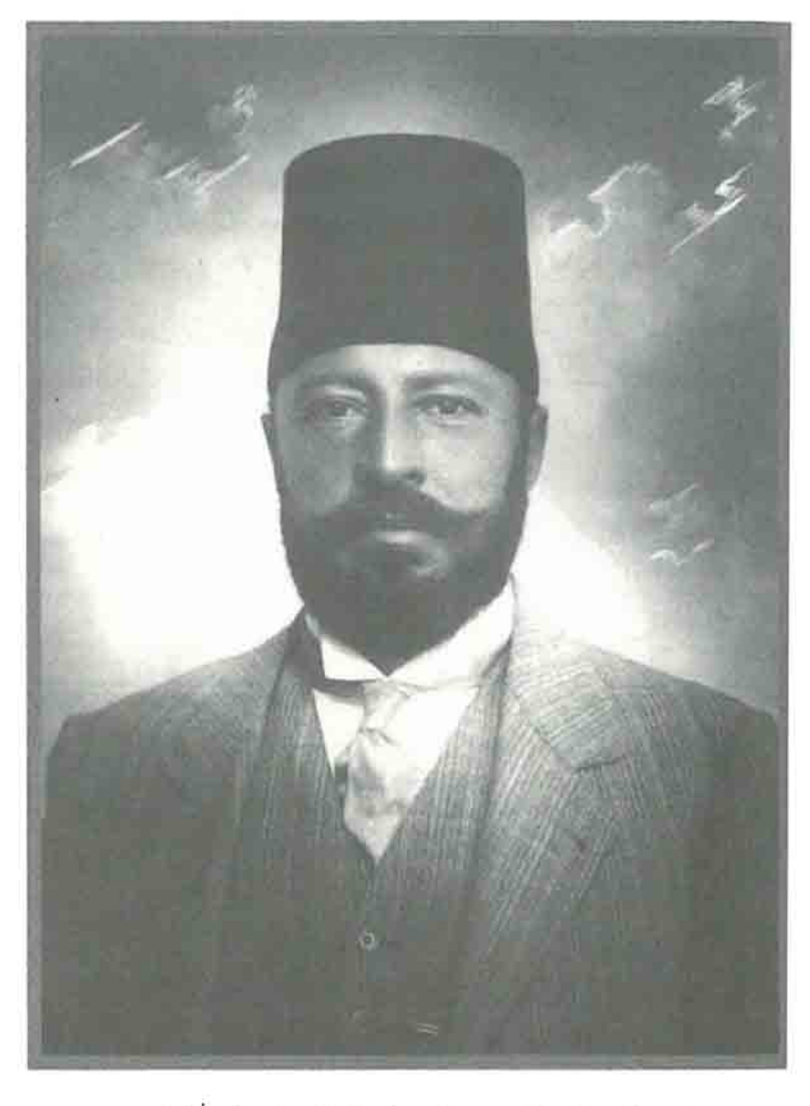


أحد أعضاء محفل إبراهيم الخليل الأميركي في دمشق في العشرينيات.



داوود المارديني ومصطفى القباني من محفل إبراهيم الخليل بدمشق.

وممن عرف من الماسون الدمشقيين واشتهر بانتمائه إلى العشيرة الحرة أمير الحج الدمشقي عبد الرحمن باشا اليوسف، الذي لم يترك بصمته الماسونية في كتاب التاريخ والمذكرات، بل تركها منقوشة بالحجر في قصره العريق بحيّ سوق ساروجا خارج أسوار مدينة دمشق القديمة[١٦]. اعتُبر عبد الرحمن باشا أغنى رجل عربي في الدولة العثمانية، إذ كان مقرباً من سلاطين بني عثمان، وكان يملك كامل الشاطئ الشرقي من بحيرة طبريا، وثلاث قرى كاملة في غوطة دمشق الشرقية، وخمس قرى في سهل البقاع، وأربعاً وعشرين قرية في الجولان السوري. كانت هذه الأملاك تدرّ عليه مالاً لا يقل عن عشرة آلاف ليرة ذهبية سنوياً[١٧]. وكان قد ورث إمارة الحج الدمشقي في القرن التاسع عشر، وأصبح ماسونياً عام ١٩٠٩. وبعد



أمير الحج الدمشقي عبد الرحمن باشا اليوسف رئيساً لمجلس الشورى في عهد الملك فيصل الأول عام ١٩٢٠.

سقوط الدولة العثمانية أنشأ وترأس مجلس الشورى السوري في عهد الملك فيصل الأول ما بين ١٩١٩-١٩٢٠.

في قصره الفاخر بحيّ سوق ساروجا، الذي يمتد على مساحة ٢٥٠٠ متر مربع غرب المدينة إلى جانب قصر الرئيس خالد العظم، قام عبد الرحمن باشا بتزيين ليوان فسحة بيته السماوية بشعارات ماسونية. شكّلت هذه الرسوم الماسونية جزءاً لا يتجزأ من تراث قصره الجميل إلى جانب المفروشات المصدّفة الأنيقة المجلّلة بالبروكار والحرير الدمشقي. ويُعتقد أن هذه الرسومات حفرت عام ١٩٠٩، أي بعد فترة وجيزة من خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن الحكم، كإشارة منه إلى حكام إسطنبول الجدد في جمعية الاتحاد والترقي، المنتسبين أيضاً إلى العشيرة الماسونية. قُتل عبد الرحمن باشا اليوسف في حوران في صيف عام ١٩٢٠ والتحق نجله سعيد اليوسف بالماسونية، حيث أصبح محافظاً لدمشق أيام الاستقلال ما بين ١٩٤٩ و١٩٥١. واستكمالاً لدور والده الإنساني في مساعدة المدينة وفقرائها، تبرع «سعيد بك» بقطعة أرض للدولة السورية سنة ١٩٣٤ لبناء مستشفىً حديث على سفح جبل قاسيون بين حيّي ركن الدين وبرزة، سمي مستشفى ابن النفيس، وقام بوضع لوحة رخامية عند مدخل المشفى تكريماً لوالده عبد الرحمن باشا اليوسف. ولا تزال اللوحة الرخامية موجودة عند كتابة هذه السطور عام ٢٠١٦.

الهوامش

١ كيرك ماكنولتي، الماسونية: رموزها، أسرارها، وأهميتها، ٣٠٣.

٢ نفس المصدر.

٣ نفس المصدر.

٤ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل سورية ولبنان (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

٥ جريدة العاصمة (٢١ تشرين الأول ١٩٢١).

٦ لقاء المؤلف مع كوليت خوري (دمشق، ٢٠ شباط ٢٠١٦).

٧ الأب لويس شيخو، السر المصون في شيعة الفرمسون.

٨ لقاء المؤلف مع الدكتور نقولا أنسطاس شاهين (دمشق، ٢٩ آذار ٢٠١٦).

٩ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل سورية ولبنان (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

١٠ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل نور دمشق (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

١١ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل نور دمشق (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

١٢ نفس المصدر.

١٣ فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ص ١٩٨.

١٤ عبد الحليم إلياس خوري، الماسونية ذلك العالم المجهول، ٥٤.

١٥ سجلات محاضر جلسات محفل إبراهيم الخليل، الموجودة في محفل نيويورك الأكبر.

١٦ لقاء المؤلف مع السيدة فاتن اليوسف حفيدة عبد الرحمن باشا اليوسف (دمشق، ١٤ تموز ٢٠١٦).

١٧ حنا بطاطو، فلاحو سورية، ٤٠.



كانت الماسونية تاريخياً عبارة عن أخوية ذات أسرار، علمانية الهوى وباطنية المنشأ، متاحة للرجال فقط، بالرغم من دخول النساء إلى بعض المحافل في أوروبا والولايات المتحدة في نهايات القرن التاسع عشر. ولكن في سورية وكافة البلدان العربية كانت الماسونية دوماً حكراً على الرجال فقط، وبقيت كذلك من الولادة حتى المهات. ولكي يصبح أي راغب عضواً في الماسونية، ينبغي له أن يقدم طلباً شخصياً إلى محفل رسمي في المنطقة التي يسكن فيها، ويجري قبول «الطالب» أو رفضه في اقتراع سرّي بين أعضاء المحفل المعني. يكون التصويت بوضع بطاقة في صندوق، لا يراها إلا رئيس المحفل، بيضاء اللون في حال القبول وسوداء في حال الرفض. شروط القبول هي أن يكون «الطالب» قد بلغ الحادية والعشرين من العمر، سليماً من الناحية الصحية والقانونية، ذا سمعة حسنة، وأن يكون «رجلاً حر الإرادة» مؤمناً

بوجود خالق بغضّ النظر عن تسميته وديانته. فالماسونية ليست ديناً، ولكن أعضاءها يصفونها بأنها حامل للدين وداعم فلسفي له. لا يوجد رسل أو أنبياء في الماسونية أو أي كتابات مقدسة، وفي مراسيم الانتساب يخيّر «الطالب» بين حلف القسم وتقبيل إما القرآن أو الإنجيل أو التوراة، إذ لا مكان للملحدين بين صفوف الماسونية، وأول سؤال يُسأله طالب الانتساب عند التقدم بطلبه هو: «هل تؤمن بالخالق؟»، فمن كانت إجابته بالنفي عليه أن يعود من حيث أتى.

الماسونيون يعتمدون عبارة «مهندس الكون العظيم» رمزاً إلى الخالق ويضعون حرف (جي) في صدارة محافلهم، رمزاً لكلمة (GOD) باللغة الإنكليزية. ينبغي للمتقدم أن يحصل على تزكية خطيّة من قبل شخصين ماسونيين على الأقل، ولا يستطيع أحد أفراد العشيرة أن يدعو أحداً للدخول في الماسونية، كما يعتقد كثيرون، أو إجباره على الانتساب. بالإضافة إلى أن وفرة المال أو الثراء لدى أي منتسب ليسا من شروط القبول، لا ثروة ولا نفوذ أو سلطة، بل «سمعة حسنة». تدور مبادئ الماسونية حول الميتافيزيقيا وتفسير الكون والصعود في النفس والروح و«دفع المحبة والأخوية والعمل الخيري» بين كل الناس، كما ورد في أدبياتها الرسمية. ويقول الماسونيون إنهم يسعون في عملهم وعلمهم إلى بعث الحقيقة والعدل والعدالة، وإنهم لا يسعون إلى حكم العالم أو إلى تأسيس «حكومة عالمية في الظل» كما تقول عنهم الشائعات.

بسبب السرية البالغة عند الماسون وعدم فتح محافلهم للغرباء إلا في لندن (وذلك في إطار الزيارة السياحية فقط)، ظهرت الكثير من الاتهامات

والأقاويل عمّا يدور في داخل تلك المحافل، واتهم الماسون في سورية وحول العالم بعبادة الشيطان والسعي إلى الهيمنة على المجتمع، وقلب أنظمة الحكم. بينما يصر أعضاؤها على أنهم عشيرة متينة، تحفظ أسرارها بصمت أو «حرز حريز» وولاء مطلق، وأنها عبارة عن مجموعة من الرجال الذين يسعون دوماً إلى أن يصبحوا أفضل عبر فكرهم وعملهم.

إنّ من يجتاز مرحلة القبول يصبح «بناءً مبتدئاً» في العشيرة، يرتدي مريولاً أبيض يرمز إلى الصفاء وإلى أولى درجات العمل لدى الحرفيين والبنائين. تكون صلاحيات المبتدئ محدودة، فلا يحق له مثلاً التصويت لقبول عضو جديد، ولا يحق له تنظيم أعمال خيرية، ولكنه يستطيع حضور الاجتماعات دون أن يكون له حق التصويت على أيّ من القرارات. تُعصب عيناه عند دخول المحفل، مرتدياً اللون الأبيض، يسير العضو المبتدئ في الظلام واضعاً يده اليمنى على كتف رفيقه الماسوني يقوده دون أن يعرف هويته، ليتعلم ألا يسأل أين يمضي وأن يُسلّم لأخيه في الماسونية تسليماً مطلقاً. عصبة العين ترمز إلى حالة الجهل الذي يكون فيها المتقدم إلى العشيرة الحرة وإلى الظلام الذي كان يعيش فيه قبل دخوله الماسونية. وعند أدائه القسم تُرفع العصبة عن عينيه ويصبح مستعداً لاستقبال الضياء. في مراسم القبول يوضع حبل غليظ حول عنق المبتدئ، كرمز للحبل السري الذي يعتبر ضرورياً لبدء الحياة، ولكنه يُقطع أو يُستبدل بعد القسم بمفاهيم الحب والعناية التي تعتبر ضرورية لإدامة الحياة. يُكشَف عن صدره الأيسر حيث يُنغز بطرف سيف مسلول، تذكيراً بالعقاب المتّبع عند الماسون في حال إنشاء هذا العضو أي سرّ من أسرار العشيرة عند تعرفه إليها تباعاً، وهي دلالة على الموت طبعاً، ويُهدد بقطع عنقه وتكسير أضلاعه لو فعل.

في عام ١٩٢٥ قام «محفل قاسيون» الدمشقي بطرد الصحفي الشاب نجيب الريس، صاحب جريدة «القبس» اليومية، بسبب إفشائه لأسرار المحفل وهو لا يزال في رتبة «المبتدئ». لم يُضرب عنقه طبعاً ولا كسّرت أضلاعه، ولكن المحفل أصدر تعميماً إلى كافة محافل سورية ولبنان، يقول فيه إن نجيب الريس طُرد طرداً نهائياً من العشيرة، ولا يجب التعامل معه كأخ من الآن فصاعداً. لم يردّ نجيب الريس بكلمة واحدة طوال حياته المهنية، ومات سنة ١٩٥٢ دون أن يعرف أحد عن ماضيه الماسوني شيئاً. لكن رسالة طرده من الماسونية وردّه عليها نشرت بعد خمسة وستين عاماً من وفاته عندما قامت الصحفية السورية سعاد جروس بجمع أوراق الريّس في كتاب عن حياته[1]. وعلى الرغم من وصف «محفل قاسيون» لطرده بالنهائي، فقد سامحت الماسونية الدمشقية نجيب الريس ودعته إلى إحدى حفلاتها الخيرية عام ١٩٣٤ ووصفته في برنامجها المطبوع والموزع على الحضور بـ«الأخ نجيب الريس»[2].

RITE ECOSSAIS ANCIEN ACCEPTE

Grande Loge de France

R∴ L∴ Kaysoun

N° 800 Or∴ Damas

CABINET DU VÉNÉRABLE

No

Damas, le 192 (E∴ V∴)

ديوان المحترم

دمشق في [illegible] ١٩٢٥

حضرة الإخوان الأفاضل [illegible] [illegible]

تحية أخوية [illegible] وبعد [illegible] على [illegible]
[illegible] غير لائقة وعلى تجرئه على مخالفة القانون وإهانته المحفل
[illegible] بألفاظ غير [illegible] فقد قرر المحفل
في جلسته المنعقدة [illegible] بالإجماع [illegible] طرده طرداً أبدياً من العشيرة الحرة
[illegible] سائر المحافل [illegible] نسأله تعالى أن يوفقنا [illegible]
[illegible] العشيرة المقدسة [illegible] وتقبلوا [illegible]

[illegible]

حضرة الاخوان المحترمين اعضاء محفل قاسيون الموقرين

سلامي واحترامي. وبعد فمنذ شهرين تقريباً سمعت انه صار الحكم برسالة مع ... ان محفلكم الموقر طلب ابلاغي نسخة عن قرار فصلي اذ اتخذ بحقي اجماعاً قاضياً بعقوبة شديدة لا ابلغ مقدارها ولا نوعها ولا يمكن التبليغ ذمتي القرار. وقد جئت الآن مكرراً رجائي السابق باعطائي حسب ما يقتضيه القانون خلاصة القرار اذا كنت مخطئاً او بيان ما يوجب مؤاخذتي مع استعدادي امامكم لتحمل جميع ما يترتب علي وما يوجبه القانون والنظام. وفقاً لتقدمكم الى انني لا اطلب سوى الانصاف وعدم اضاعة حقوقي وتفضلوا بقبول فائق احتراماتي ودمتم

في ١٦ حزيران ٩٢٧

نجيب الريس

رد من نجيب الريس إلى محفل قاسيون، حول طرده من المحفل بتاريخ ١٦ حزيران ١٩٢٧.



برنامج الحفلة السنوية لمحفل قاسيون

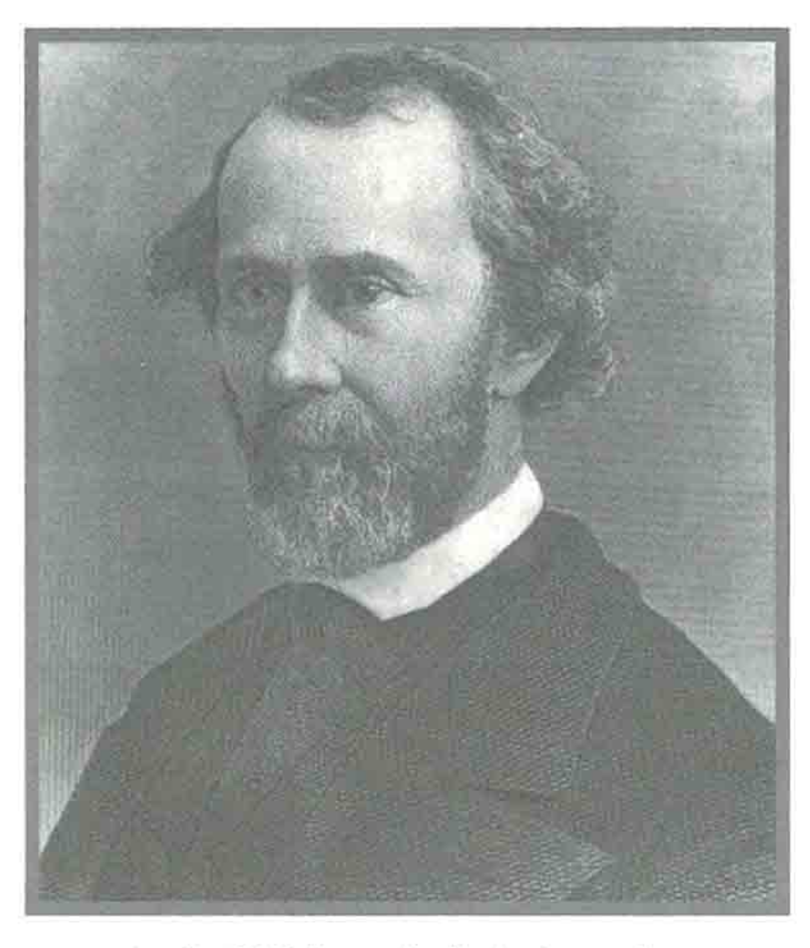
التي ستقام مساء ١٢ مايس ١٩٣٤

١ – افتتاح المحفل رسميا
٢ – قراءة أعمال الجلسة الماضية وتصديقها
٣ – ادخال الزوار
٤ – كيس المراسلات فيما يتعلق بالحفلة فقط
٥ – كلمة ترحيب بالسادة الزوار
٦ – كلمة خطيب المحفل الاخ سليمان سعد
٧ – كلمة الاخ المحترم السابق رضا سعيد
٨ – كلمة الاخ المحترم الأسبق خليل المبل .
٩ – كلمة الحلواني للمحفل (يراعى فيها الاختصار)
١٠ – كلمة للاخ نجيب الريس
١١ – كلمة شكر وختام
١٢ – كيس الاحسان
١٣ – قفل الاشغال

روبرت موريس ولؤلؤة الشرق

وصلت الماسونية العالمية إلى مدينة دمشق في نيسان ١٨٦٨ عبر ماسوني أميركي يدعى روبرت موريس، جاء إلى سورية العثمانية لإنشاء أول محفل في عاصمة الأمويين. كان روبرت موريس شاعراً وكاتباً، ولد في بوسطن وأقام في مدينة نيويورك، وانتسب إلى محفل ولاية كنتاكي عندما كانت الماسونية في أوج تألقها وقوتها في أوروبا والولايات المتحدة. جاء موريس إلى دمشق حاملاً تحية أخوة من «نصف مليون ماسوني أميركي» ومعه مبلغ ألف دولار لتأسيس أول محفل فيها ولتعريب الماسونية عبر أبنائها، معتبراً أن جميع أسرار العالم القديم ورموزه موجودة في دمشق، التي وصفها روبرت موريس في كتاباته بـ«لؤلؤة الشرق» وأن في دورها وقصورها «غبار ألف جيل من البشرية»[٣].

استُقبل روبرت موريس بحفاوة من قبل الدمشقيين ووالي المدينة العثماني الشاب محمد رشيد باشا، البالغ من العمر الثالثة والثلاثين يومها، والذي كان أيضاً ماسونياً مثله. حيّاه موريس بالقبضة الماسونية ووصفه بالرجل «الجريء والحكيم والعالم، ومن يفتخر بارتدائه للوزرة الماسونية». جال روبرت موريس والوالي العثماني في شوارع دمشق وقام بزيارة لآثار مدينة تدمر في الصحراء السورية، ثم عرفه إلى خمسة عشر ماسونياً دمشقياً، معظمهم من أعضاء محفل فلسطين رقم ٤١٥ الموجود في بيروت[٤]. أسس هذا المحفل عام ١٨٦١، برعاية المحفل الأكبر الإسكتلندي، وبقي يعمل حتى سنة ١٨٨٩ [٥]. في ذلك الوقت لم يكن هناك أي محفل محلي في دمشق، وكان كل الماسون الدمشقيون منتسبين إلى محافل خارجية، يحضرون



روبرت موريس الماسوني الأميركي من محفل كينتاكي الذي جاء
إلى دمشق ليؤسس أول محفل محلي في نيسان ١٨٦٨ .

الاجتماعات الدورية في المناسبات فقط، نظراً إلى مشقة السفر، فدعاهم موريس إلى اجتماع سرّي هو الأول من نوعه في تاريخ المدينة. جاء روبرت موريس بأدواته الماسونية ووضع قرآناً وإنجيلاً في وسط الغرفة أمام كرسي فخم مزين بالصدف الدمشقي، وعيّن نفسه رئيساً للجلسة، وبذلك رئيساً للمحفل الوليد. دخل الماسون السوريون الغرفة ببذلاتهم الغربية (الفراك) وطربوشهم الأحمر، ليصنعوا في ذلك اليوم تاريخ الماسونية في دمشق: ٧ نيسان ١٨٦٨ [٦].

عُقد اجتماع الماسون في فندق ديمتري المطل على نهر بردى في ساحة المرجة، والذي كان المكان المفضل يومها لدى نخبة دمشق حيث كانوا يسهرون ويشربون ويشاهدون العروض المسرحية والوصلات الغنائية. كان فندق ديمتري هو الأول من نوعه في دمشق شيده صاحبه اليوناني ديمتري كاراه سنة ١٨٥٠. ذلك المساء الربيعي من شهر نيسان، خلا فندق ديمتري، المؤلف من دارين متلاصقتين، من زبائنه المعتادين، وطاولات لعب الورق والنراجيل العجمية، وتهيأ زواره لنوع آخر من السهر، مختلف عن كل ما عرفوه في الماضي.

كان الماسون الدمشقيون من خلفيات متنوعة علمياً وعائلياً، عملوا معاً على وضع رسالة موجهة إلى المحفل الأعظم الإنكليزي، طالبين صك براءة لتشغيل محفلهم المحلي الأول، دون ذكر اسم له[٧]. وقد وقّعوا على الطلب بصفتهم «ذوي أرضية متينة أخلاقياً واجتماعياً، لا مثيل لنا في هذا البلد في تجسيد مبادئ العشيرة». وكان من بين الحضور نائب القنصل الأميركي في دمشق ناصيف مشاقة، أحد أعيان المسيحيين، ومحمد علي محاسن، أحد



ساحة المرجة بدمشق حيث عقد أول اجتماع لمحفل ماسوني في المدينة في نيسان ١٨٦٨.

أعيان المسلمين الذي كان يعمل في المحكمة العثمانية العليا، ومعهما الأميران محمد ومحيي الدين الجزائري، ابنا الثائر الجزائري الأمير عبد القادر، المقيم في دمشق منذ عام ١٨٥٥. وقد قيل إن الأمير عبد القادر الجزائري، قائد ثورة بلاده ضد الفرنسيين، قد انضم إلى البنائين الأحرار في مصر في حزيران عام ١٨٦٤، وإنه شجّع ابنَيه على تأسيس فرعٍ لها في دمشق، وإنه استقبل روبرت موريس في داره بزقاق النقيب خلف الجامع الأموي بحيّ العمارة، بالقبضة الماسونية الشهيرة[٨]. ولما كان من المستحيل وجود أي دليل فعلي على انتساب الأمير عبد القادر إلى الماسونية، بالرغم كل ما أشيع وكتب عنه، ولكن من المؤكد أن ابنَيه كانا ماسونيين، وكذلك حفيده الأمير سعيد، الذي أصبح

حاكماً لمدينة دمشق عام ١٩١٨، وشقيقه الأمير جعفر الذي أسس المتحف السوري بعد سنوات[٩]. لكن في عام ١٨٦٨ بارك الأمير عبد القادر مبادرة ولديه، والتي ضمت أيضاً صديق العائلة الوجيه صالح العظم، وعباس خولي خان، قنصل بلاد فارس في دمشق.

كتب روبرت موريس شاكياً أنه لا يوجد إلا محفل سوري واحد في مدينة بيروت الساحلية، أما بقية المحافل فكان أقربها إلى دمشق محفل الإسكندرية، يرأسه الأمير حليم باشا، أصغر أبناء محمد علي باشا خديوي مصر، ومحفل قديم في الأناضول، كان والي الشام محمد رشيد باشا عضواً فيه[١٠]. فيما أشار موريس إلى أن في بلاده، الولايات المتحدة الأميركية وحدها، كان هناك ما لا يقل عن ثمانية آلاف محفل ماسوني معتمد، تشكّل ثلثي محافل العالم كله[١١]. أضاف بالقول إنه «بالرغم من رابطة الأخوة القوية الموجودة لدى الماسونيين السوريين، فإنهم غرباء عن بعضهم البعض، وكأنهم سياح يزورون دمشق، وذلك بسبب انعدام أي تنظيم بينهم»[١٢]. في ختام رسالته إلى محفل لندن كتب موريس: «لا يوجد مدينة في العالم تحتاج لتأسيس محفل من هذا النوع مثل مدينة دمشق»[١٣]. وقد أرسل طلب الترخيص بواسطة روبرت موريس إلى لندن عبر بيروت يوم ٢٢ نيسان ١٨٦٨.

استقبلت دمشق الماسونية بصدر رحبٍ وبأيادٍ مفتوحة، وتدفق أبناؤها للانتساب إلى هذه الجمعية الجديدة القادمة من الغرب. تعاملوا معها بشيء من الحذر، لكونهم بالرغم من شدة إعجابهم بتطور العلوم والاقتصاد والصناعة في الغرب، كانوا حذرين أيضاً من مطامع الدول الغربية في بلادهم. وعند زيارة مؤسس مجلة «المقتطف» المصرية شاهين مكاريوس

لدمشق عام ١٨٨١، أشار إلى أنه بالرغم من قصر عمرها، فإن الماسونية في سورية كانت «ناجحة للغاية»، وإن أعضاءها يمثلون كامل ألوان طيف المجتمع الدمشقي[١٤]. يضيف بالقول إنه دُعي إلى حضور جلسة في أحد المحافل الدمشقية، حيث تم قبوله عضو شرف وأقيمت له «وليمة شائقة كثرت فيها الفاكهة الدمشقية الفاخرة ولم تدُر كؤوس الحان»[١٥].

مخاوف السلطان عبد الحميد الثاني

شارك السلطان العثماني عبد الحميد الثاني مخاوف السوريين من زيادة قوة الغرب في مفاصل الحياة اليومية للدولة العثمانية بعد نجاح الثورة الصناعية في أوروبا. كان عبد الحميد قد تولى العرش عام ١٨٧٦، أي بعد ثماني سنوات من بداية العمل الماسوني بدمشق. كان رجلاً شكاكاً بطبعه وإلى أبعد الحدود، لا ينام الليل خوفاً من الدسائس والمؤامرات ولا تفارق مخيلته قصص خلع أجداده عن العرش العثماني. وقد جرت محاولة اغتيال للسلطان عبد الحميد نفسه عام ١٩٠٥، ما زاد من مخاوفه وشكوكه من كل ما هو غريب ودخيل على المجتمع العثماني، وغاب من بعدها وراء أسوار قصره في إسطنبول، لا يظهر إلا في ما ندر خوفاً من محاولة اغتيال أخرى. بنى جامعاً فخماً مقابل قصره على ضفاف البوسفور، لتجنب الصلاة في وسط المدينة بين الناس، وصار يشرف بنفسه على إعداد وجبات الطعام في قصره، خوفاً من أي محاولة اغتيال بالسُّم.



السلطان عبد الحميد الثاني، الذي نشطت الماسونية في دمشق في عهده وخلع عن العرش بسببها عام ١٩٠٩ .

في عصر السلطان عبد الحميد، تقلصت حدود الدولة العثمانية كثيراً، تلك الدولة التي كانت تضم ذات يوم مناطق واسعة من أوروبا الشرقية، ومدن البلقان، وجزيرة القرم، والقوقاز، والكثير من مدن شمال أفريقيا. فقد عبد الحميد سيطرته على كل من صربيا، ومونتينيغرو، والبوسنة، وقبرص، وتونس، ومصر، بعدما كانت إمبراطورية أجداده تغطي ثلاث قارات، يعيش فيها ما يربو على ٢٥ مليون مواطن يحمل الجنسية العثمانية. حاول عبد الحميد تعويض نفسه عن كل هذه الخسائر بفرض قبضة حديدية على البلدان العربية القابعة تحت حكمه، ومنها طبعاً ولاية الشام.

لم يكن عبد الحميد ديكتاتوراً من يومه الأول في الحكم. على العكس، كان في بدايات حكمه سلطاناً منفتحاً على الآخر، إذ يُعَدّ من إصلاحيي عصره بين نادي الملوك والحكام. فبعد توليه الحكم، أمر بإعطاء المزيد من الصلاحيات للحكام المحليين المعينين من قبله، وأعاد العمل بالدستور العثماني وبمجلس النواب (المعروف يومها بمجلس المبعوثان). كانت هذه الإصلاحات بإيعاز من الصدر الأعظم مدحت باشا (الماسوني الشهير الذي عُين والياً على دمشق عام ١٨٧٨). همس مدحت باشا في أذن السلطان بأنّ بإمكانه تجنب حرب مع روسيا القيصرية لو أظهر نفسه حليفاً لملوك أوروبا ومنفتحاً على عالمهم ونظام حكمهم. لم تنجح المحاولة طبعاً، ودخلت الدولة العثمانية حرباً مع الروس أدت إلى هزيمة نكراء للسلطان عبد الحميد عام ١٨٧٨، ما أغضب الأخير وجعله يضرب بكل إصلاحات مدحت باشا. وبين ليلة وضحاها، أعلن أن الديموقراطية الغربية مؤامرة على الإسلام وعلى عرشه، فقام بتعليق الدستور المكتوب بأيدي خيرة خبراء الدولة العثمانية، وعطّل البرلمان بفرمان سلطاني بعد عام واحد من تسلّم أعضائه مناصبهم.

ثم أطلق عبد الحميد أيادي أجهزته الأمنية، وسمح لهم بمراقبة الناس والصحف، وباعتقال من يرونه يمثّل تهديداً لسلامة الدولة وأمنها. وقد قيل يومها إن مخبري عبد الحميد موجودون في كل ركن من أركان دمشق وإسطنبول، يراقبون حياة الناس وتصرفاتهم وكلامهم في المجالس الخاصة والعامة، وإنهم حولوا الماسونية العثمانية إلى فرع تجسس كبير.

ثلاثة من أشقاء السلطان عبد الحميد كانوا من الماسون، وكذلك وزيره ومستشاره مدحت باشا، إضافة إلى عدد لا بأس به من ضباطه الشباب، ولكن عبد الحميد نفسه لم يكن ماسونياً في يوم من الأيام ولم تعجبه أفكار الماسون وتأثرهم بالغرب وسريّة محافلهم وعملهم. على الرغم من ذلك، فقد سمح للعشيرة بأن تنشط في بلاده، آملاً أن يستطيع أعضاؤها خلق شبكة ولاء جديدة له ولعرشه، لأن الماسونية - كما قيل له - تشجع على احترام الدولة وعدم المساس بأمنها، وتطلب الولاء المطلق لحكامها، ملوكاً كانوا أو رؤساء. حاول السلطان عبد الحميد تجيير الماسونية لمصلحته، وتحويلها من فكر غربي دخيل على مجتمعه إلى تنظيم محلي تابع له، مستثمراً شبكة علاقات أعضائها المتنوعة والقوية مع رؤوس الأموال والسياسة ورجال الأعمال العالميين. وكان شرطه الوحيد أن تتبع بشكل تام إلى قوانين الدولة العثمانية وأحكامها. وهذا فعلاً ما حصل، فقد قبل الماسون بشروط السلطان وأقسموا الولاء المطلق له، وبدأت تظهر سلسلة من المحافل الماسونية العثمانية التابعة لمحافل فرنسية وإيطالية بين ١٩٠٨ و١٩١٠، مزينة بعلم الدولة الأحمر وهلاله الأبيض وصور السلطان المعظم، راعياً وأباً ووالياً عليهم. من طريق هذه النخبة أراد السلطان عبد الحميد إعادة اختراع نفسه ودولته، وربطها ربطاً مباشراً به مع إدخال بعض معالم الحداثة

مثل الكهرباء وخط التلغراف. وقد كان لدمشق حصة الأسد من هذه الرعاية، واستفاد المثقفون من أهلها بإطلاق يدهم في العمل الماسوني حتى بداية الحرب العالمية الأولى في صيف عام ١٩١٤.

شرق الأموي الكبير

بناءً على تعاليم البنائين الأحرار وأعرافهم، فإن جميع المحافل في العالم يجب أن تقع شرق المدينة الحاضنة لها، لأن الشمس تشرق من الشرق لتضيء النهار، ورئيس المحفل يجلس في الشرق لتشغيل المحفل وإدارة رعيته. فالمحافل هي مركز اجتماع الماسونيين ومقرهم الدائم، وفيها تعقد الاجتماعات وتدار أمور العشيرة. منها يُقبَل الأعضاء في المراتب الأولى والثانية والثالثة، وفي هذه المحافل تجري عمليات التنصيب والترفيع، ومعرفة الأسرار وشعارات التعارف بينهم.

عندما بدأت المحافل بمزاولة أعمالها في دمشق نهاية القرن التاسع عشر، كانت المدينة صغيرة جداً بالمقارنة مع دمشق المعروفة اليوم، فقد كانت محصورة ضمن أسوارها القديمة. وكان عصب المدينة ومركزها الرئيسي جامعها الأموي الكبير، حيث توجد مئذنة عيسى، التي سينزل عليها السيد المسيح يوم القيامة لمحاربة المسيح الدجال، كما يعتقد ويقول علماء الدين الإسلامي. فعند المسلمين، يقول الحديث الشريف إنه سيظهر على منارة بيضاء شرق دمشق (أي مئذنة عيسى شرق الجامع الأموي). وقد تأسست جميع المحافل الماسونية على مسافة قريبة من الجامع الكبير لكي تكون فعلاً شرق المدينة. قدر عدد المحافل في سورية ولبنان بثلاثين سنة ١٩٢٣، يصل

عدد أعضائها إلى ١٥ ألف ماسوني، ٧ آلاف منهم في دمشق وحدها[١٦]. المحفل الأول كان «محفل سورية» وقد تأسس عام ١٨٧٩، وكان يتبع للمحفل الأكبر الإيطالي[١٧]. عاش هذا المحفل لمدة ١١ عاماً فقط ولم تنجُ أي من أوراقه الرسمية[١٨]. تلاه محفل «نور دمشق» صاحب الترخيص رقم ١٠٥٨ التابع للمحفل الأكبر الإسكتلندي، وتأسس في عام ١٨٩٨ في حيّ مئذنة الشحم، في عقر دار تجار المدينة ووجهائها الأثرياء.

محفل نور دمشق

أُنشئ محفل «نور دمشق» داخل قصر بديع الجمال، مؤلف من ثلاث عشرة غرفة فاخرة، تزيّنت كل غرفة منها بزخارف من مختلف الألوان كالذهبي والزهري والاخضر. أما أسقفها العجمية، فكان يصل ارتفاع الواحد منها حتى سبعة أمتار علواً عن الأرض، واحتوى القصر على ثلاث فسح سماوية في أرض الديار، فيها بحرات تمتلئ بالماء العذب، وأشجار ليمون عالية ونارنج، وزهرات الأضالية والياسمين الدمشقي. عُرف حيّ مئذنة الشحم بهذا البهاء وهذه الأناقة، وأيضاً بكونه مسقط رأس شاعر الشام نزار قباني الذي ولد فيه عام ١٩٢٣، والذي لطالما تغنى بمئذنة الشحم شعراً بعد سنوات طويلة من إغلاق محفل «نور دمشق» ونزع صفة الماسونية عن هذا الحيّ الدمشقي العريق. لا نعرف الكثير عن هذا المحفل إلا أسماء أعضائه المؤسسين، الذين بلغ عددهم ١١٠، ومكان انعقاد اجتماعاتهم، فجميع أوراق «محفل نور دمشق» قد ذهبت أدراج الرياح ومعها سجل جلساته الشهرية وعمله الخيري، باستثناء ملف واحد فقط عائد إلى عام ١٩١٢، موجود حتى اليوم في سجلات المحفل الاسكتلندي الأكبر في

مدينة إدنبرا الإسكتلندية. لا يوجد أوراق تسجيل لهذا المحفل، لا في الأرشيف العثماني في إسطنبول، ولا في سجلات مدينة دمشق، ولكن كُتب لاثنين من مؤسسيه أن يصبحا من أبرز الأسماء في الحركة الوطنية في سورية، رفاق دراسة ودرب وسلاح وأخوة في الماسونية مدى الحياة، هما عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري. كان كل من الرجلين قد درس في جامعة بيروت الأميركية وأصبح علماً في عمله، إذ أصبح الشهبندر طبيباً والخوري محامياً، وذلك قبل دخولهما ميدان العمل السياسي مع بدايات القرن العشرين. وكان من بين الأعضاء المؤسسين لمحفل «نور دمشق» أيضاً، السياسي الكبير عطا الأيوبي والوجيه المسيحي سليم مشاقة مترجم القنصلية البريطانية في دمشق، وعبدو قدسي، القنصل الفخري لليونان والدنمارك في دمشق، وعبد الله مالك (والد الأمين العام لمجلس الوزراء المشار إليه سابقاً القاضي حنا مالك)، ومحمد الكزبري من كبرى عائلات دمشق والوجيه محمود البارودي، والد الزعيم فخري البارودي[١٩].

ونتيجة لانعدام الأمان وتدهور الحالة الاقتصادية والمعيشية لدى الناس، أغلق هذا المحفل أبوابه مع اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى في صيف عام ١٩١٤، ولم يُعَدْ فتحه عند انتهاء الحرب بعد أربع سنوات ونيف[٢٠]. لا يوجد دليل على أي منفعة، مالية كانت أو سياسية، حصل عليها الجيل الأول من البنائين الأحرار الدمشقيين، فجميعهم كانوا في الأساس من نخبة المجتمع السوري، لا يوجد شبكة علاقات بدمشق تعلو فوق شبكتهم الاجتماعية والعائلية والعشائرية، المركبة بدراية ودقة على مدى عقود من الزمن. عائلة الكزبري على سبيل المثال كانت مشهورة بعلم أبنائها في المجال الديني وفي مكانتهم المرموقة في مجتمع الأعمال والتجارة، وكذلك



مصرف سورية ولبنان بالقرب من ساحة المرجة حيث عقد الاجتماع التأسيسي لمحفل قاسيون يوم ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٢.

الحال مع عائلة القدسي المسيحية التي اشتهرت بتجارة الحرير قبل دخول الماسونية إلى هذا البلد بسنوات طويلة. محمود البارودي كان حفيد حاكم مدينة عكا، والشهبندر كان أشهر طبيب في دمشق يداوي أرفع الضباط رتبةً في الجيش العثماني. الماسونية أخذت من مالهم وسمعتهم، وقطعاً استفادت منهم في مرحلة التأسيس، ولو أعطتهم بقدر ما أخذت منهم لما كان الكثير من أعضائها تخلوا عنها بهذه السهولة، سواء بعد الحرب العالمية الأولى أو بعد نكبة فلسطين. الفائدة الوحيدة هنا، ونحن نتكهن ولا نجزم، تكون في العلاقات مع الأجانب والعالم الخارجي، فالشهبندر وفارس الخوري مثلاً وجدا عملاً فور تخرجهما في الهيئة التدريسية لجامعة بيروت الأميركية،



محفل الحكمة

حضرة الأخ العزيز رضا ...

تحية أخوية .. وبعد أتشرف بأمر الرئيس المحترم
بدعوتكم لحضور جلسة المحفل الاعتيادية التي تعقد في الساعة
السادسة من مساء يوم ... كالعادة في الدار الماسونية
الكبرى بشارع خالد بن الوليد ...
دمشق في / /

برنامج الأعمال

١ - فتح الجلسة.
٢ - تلاوة محضر الجلسة السابقة والتصديق عليه.
٣ - تلاوة الرسائل والطلبات الواردة إلى المحفل.
٤ - التكريس
٥ - زيارة
٦ - مذاكرة
٧ - كيس الإحسان
٨ - غلق الجلسة.

حفلة تنصيب رسمي
لأعضاء محفل الحكمة
لعام ٩٤٨

ليس فقط لأنهم ماسون، بل لأنهم يستحقون أرفع المناصب العلمية، ولكن الماسونية العالمية وانتماءهم إلى «محفل نور دمشق» من الممكن أن تكون قد فتحت أبواباً بنحو أسرع لكلا الرجلين.

محفل قاسيون

عند انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، عاود الماسون الدمشقيون ممارسة أعمالهم بنشاط، فقاموا بافتتاح عدة محافل جديدة في دمشق وبيروت وزحلة وحمص وحماه وحلب واللاذقية وطرابلس. ففي الفترة ما بين عام ١٩٢٢-١٩٢٤ ظهر محفلان في دمشق وحدها، محفل قاسيون ومحفل سورية

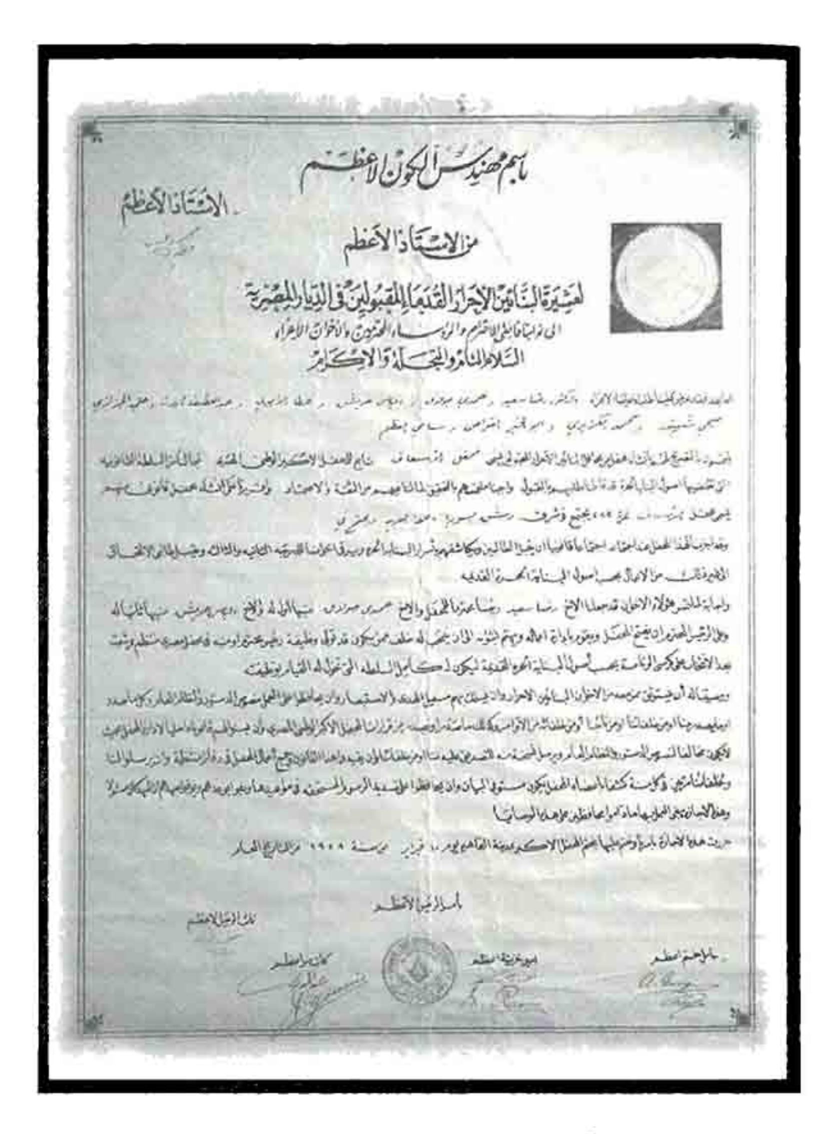
(وهو غير المحفل الذي حمل نفس الاسم نهايات القرن التاسع عشر). وقد تأسس «محفل قاسيون» في الطبقة الأولى من مصرف سورية ولبنان في ٤ كانون الثاني ١٩٢٢، وكان تابعاً للمحفل الأكبر الفرنسي، وعُرف من بين أعضائه رئيس الوزراء الأسبق جميل الإلشي، الذي حكم البلاد لفترة وجيزة مع احتلال الفرنسيين مدينة دمشق في صيف عام ١٩٢٠، والوجيه رضا مردم بك، والتاجر زكي سكر، وطبيب العيون الدكتور رضا سعيد الذي أصبح الأب المؤسس للجامعة السورية بعد أشهر قليلة، والذي غادر محفل قاسيون في عام ١٩٢٨ ليؤسس «محفل الإسعاف» في دمشق وأتبعه بالمحفل الأكبر المصري[٢١]. وعرف أيضاً من أعضاء «محفل قاسيون» من الأعلام الطبيب مصطفى شوقي مؤسس منظمة الهلال الأحمر السوري وصديقه الصيدلاني خليل الهبل. وكان الدكتور شوقي قد عمل مع الدكتور رضا سعيد في إعادة تأهيل وتعريب كلية الطب في الجامعة السورية، وعُيِّن عميداً لها في عام ١٩٣٨. وصل عدد أعضاء المحفل إلى ذروته عام ١٩٢٢، ولم يتجاوز التسعين شخصاً[٢٢].

مع مطلع العشرينيات تغيرت الحالة بالنسبة إلى الماسونية الدمشقية، وذلك بسبب دخول عدد كبير من الأجانب مع الجيش الفرنسي المُحتل. أصبحت الماسونية مربحة على الصعيد الاجتماعي والمهني، يستطيع الدمشقيون التعرف من خلالها إلى ضباط جيش الشرق الفرنسي، وكبار الموظفين في مكتب المستعمرات والخارجية الفرنسية والتجار الأجانب. لم يكن هذا متاحاً أيام العثمانيين، لأن ضباط الجيش التركي وموظفي السلطنة الرفيعين كانوا يمارسون نشاطهم الماسوني في إسطنبول وليس في دمشق. أما أيام الفرنسيين، فكان الجميع، دمشقيين وفرنسيين، يجتمعون في محافل العاصمة

السورية أو على مآدبها الليلية لمناقشة أمور سياسية واقتصادية وتبادل الآراء. استفاد المسؤولون الفرنسيون من محافل دمشق لأنها اختصرت عليهم طريقاً شاقاً في معرفة المجتمع السوري النخبوي، وطوال فترة حكمهم لهذا البلد كانت معظم اختيارات التوظيف للمناصب العليا من داخل المحافل الماسونية. ولكن الانتماء الماسوني لم ينفع في كل الأوقات، كما كان الحال مع الرئيس جميل الإلشي (١٨٨٣-١٩٥١)، الضابط السابق في الجيش العثماني الذي عمل مع الإنكليز والهاشميين في الثورة العربية الكبرى، وعُيّن مساعداً للملك فيصل الأول عام ١٩١٨. في صيف عام ١٩٢٠ كلفه الملك فيصل إجراء مفاوضات مع المندوب السامي الفرنسي الجنرال هنري غورو، في قصر سرسق العريق في بيروت، لعل نشاطه الماسوني وعلاقته الطيبة مع الماسون الإنكليز والفرنسيين تنفع في تأجيل فرض الانتداب الفرنسي على سورية، أو تعديل شروطه القاسية. نهره الجنرال الفرنسي بشدة ورد بسخرية: «سورية لنا بالكامل، وقد اتفقنا على كل شيء مع الإنكليز!». عاد الإلشي إلى دمشق خالي الوفاض، وتولى وزارة الدفاع بعد استشهاد وزير الحربية يوسف العظمة ذلك الصيف، إثر معركة ميسلون الشهيرة، ثم عُيّن رئيساً للحكومة بعد مقتل سلفه الرئيس علاء الدين دروبي في سهل حوران صيف عام ١٩٢٠. حاول الرئيس الإلشي الاستفادة من علاقاته الماسونية مرة أخرى ورفض سلخ الأقضية الأربعة عن سورية (حاصبيا وراشيا وبعلبك وسهل البقاع)، قائلاً إن إعطاء هذه الأراضي الخصبة لدولة لبنان الكبير سوف يضر باقتصاد مدينة دمشق ومواردها. هدد بالاستقالة لو أصر الفرنسيون على ذلك، وهكذا فعلوا متجاهلين كلياً علاقات جميل الإلشي الماسونية.



الأخوة الماسون في محفل الإسعاف الدمشقي، رئيس جامعة دمشق الدكتور رضا سعيد ورئيس الوزراء عطا الأيوبي.



باسم مهندس الكون الأعظم

الاستاذ الأعظم

من الاستاذ الأعظم

لعشيرة البنائين الأحرار القدماء المقبولين في الديار المصرية

الى نواب الاستاذ الأعظم والرؤساء المحترمين والاخوان الأعزاء

السلام التام والتحية والاكرام

وثيقة تأسيس محفل الإسعاف بدمشق موقعة من قبل رضا سعيد وعطا الأيوبي بتاريخ ١٠ شباط ١٩٢٨.



دولة الرئيس جميل الإلشي عام ١٩٤٣ .

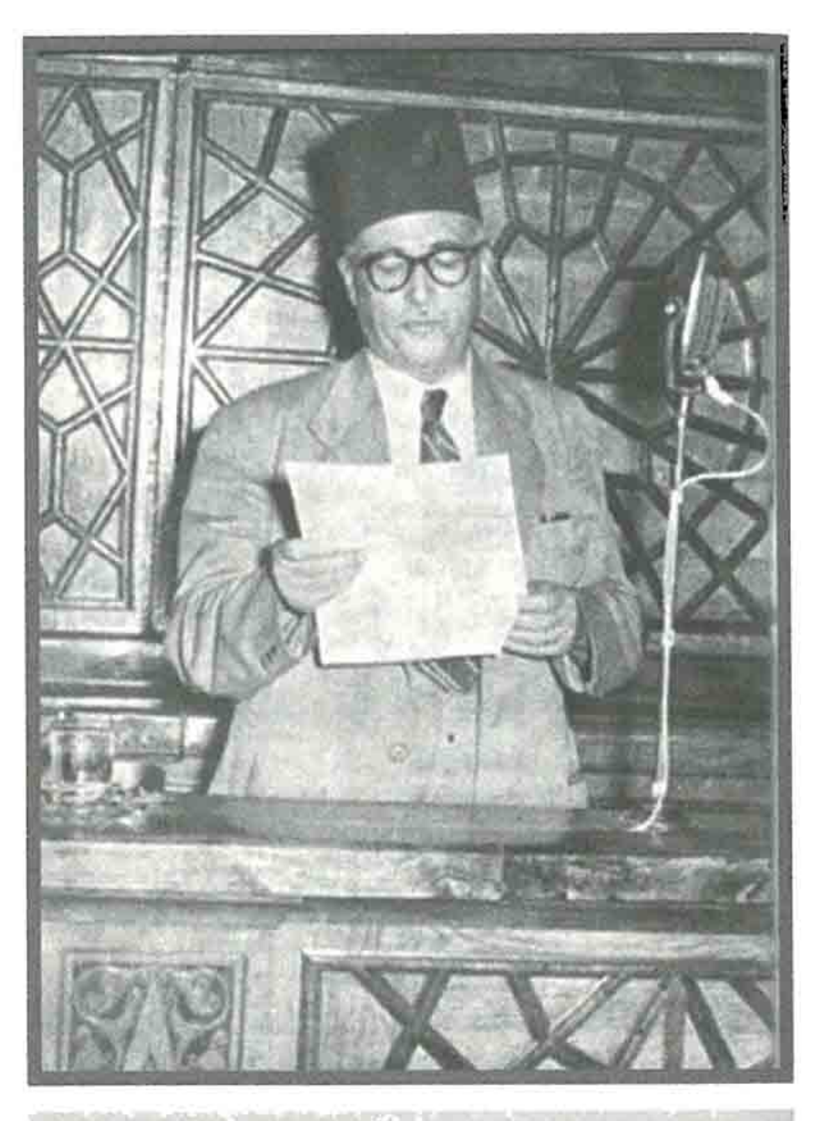
نظراً إلى كثرة الأطباء في «محفل قاسيون»، فقد تمحور معظم عمله الخيري حول القطاع الصحي وليس السياسي. إذ قام على سبيل المثال بتمويل وتشغيل مشفى لمرضى السل في حيّ الأكراد الدمشقي وقدمه هبة للحكومة السورية عام ١٩٣٦، عندما كان أحد الأخوة الماسون جميل مردم بك رئيساً للحكومة، وفارس الخوري رئيساً لمجلس النواب. كذلك موّل المحفل طباعة كتب ومجلات علمية طبعها جميعها في المطابع الأرثوذوكسية في دمشق وقدمت مجاناً لكلية الطب في الجامعة السورية[٢٣]. ولعب «محفل قاسيون» دوراً مهماً في مرحلة تأسيس الجامعة السورية، ولا سيما إعادة تأهيل كلية الطب التي افتتحت أيام العثمانيين عام ١٩٠٣ وأغلقت بسبب الحرب العالمية الأولى ليعاد افتتاح الكليتين في العهد الفيصلي. وقد عيّنت حينها لجنة مؤلفة من ستة أطباء لإعادة كتابة المناهج بعد تعريبها من اللغة التركية، وكان ثلاثة من أعضائها منتسبين إلى الماسونية الدمشقية: عبد الرحمن الشهبندر (محفل نور دمشق)، ورضا سعيد (محفل قاسيون ثم محفل الإسعاف)، ومصطفى شوقي (محفل قاسيون ثم محفل إبراهيم الخليل).

لم يقتصر النشاط الماسوني على الأساتذة فقط، بل نشطت الماسونية بين الطلاب من الجيل الأول من متخرجي كلية الطب، المتأثرين بأساتذتهم طبعاً، مثل الدكتور حسني سبح من «محفل سورية» الذي أصبح رئيساً للجامعة السورية عام ١٩٤٣، ويكون ثاني ماسوني في دمشق يصل إلى هذا المنصب العلمي الرفيع، والطبيب أنسطاس شاهين (محفل قاسيون ثم محفل سورية ولبنان)، رئيس قسم الأنف والأذن والحنجرة الذي أصبح عميداً لكلية الطب سنة ١٩٤٩. كان الدكتور شاهين ماسونياً منتسباً إلى العشيرة الإسكتلندية، وأصبح في عهد الاستقلال رئيساً لنادي الروتاري في

دمشق[٢٤]. وعُرف من رؤساء الجامعة الماسون لاحقاً الدكتور مدني الخيمي، الذي درس الطب في الجامعة الأميركية وعين رئيساً للجامعة السورية في السبعينيات في عهد الرئيس حافظ الأسد، وكان من أشد المعجبين بالدكتور عبد الرحمن الشهبندر[٢٥].



دولة الرئيس سعيد الغزي مع رئيس الجمهورية شكري القوتلي والحسين بن طلال ملك الأردن عام ١٩٥٦.



دولة سعيد بك الغزي، أحد المؤسسين لمحفل سورية
عندما أصبح رئيساً لمجلس الوزراء عام ١٩٥٤.

محفل سورية

أما «محفل سورية» فقد أسسه الشرق الأعظم الفرنسي في مقر مؤقت بحيّ سوق ساروجا يوم ٢٠ تشرين الأول ١٩٢٤، وكان يضم عدداً كبيراً من الأجانب المقيمين في دمشق، حيث كانوا يأتون شهرياً من مركز إقامتهم في بيروت إلى دمشق لحضور اجتماعات المحفل الدورية في مقره الجديد بشارع خالد بن الوليد، وهو المحفل الوحيد الموجود خارج دائرة «شرق المدينة». من أعضائه السوريين والبارزين رئيس الوزراء في عهد الانتداب حقي العظم والقانوني الشهير ورئيس الحكومة في عهد الاستقلال سعيد بك الغزي، الذي شغل منصب وزير العدل مراراً في عهد الانتداب[٢٦].

حقي العظم (١٨٦٤-١٩٥٥)، كان من أعيان عصره، سليل أسرة عريقة حكمت دمشق مع العثمانيين طوال القرن الثامن عشر، بدأ عمله السياسي أيام الدولة العثمانية، وعين حاكماً لدولة دمشق، بما فيها مدينتا حمص وحماه، من قبل الجنرال الفرنسي هنري غورو عام ١٩٢٠. كان محسوباً على الفرنسيين ورشح نفسه لرئاسة الدولة السورية مرتين عام ١٩٢٣ و١٩٣٢، ولكن لا علاقاته مع سلطة الانتداب أو انتماؤه إلى «محفل سورية» نفع في وصوله إلى سدة الحكم بدمشق. في المرة الأولى كان خصمه صبحي بركات ماسونياً أيضاً، ليطرح سؤالاً مهماً عن تنسيق الماسون في ما بينهم ووزن الأعضاء المنتسبين إلى هذه العشيرة السرية عند أقرانهم في المحافل الدولية. حقي العظم كان عضواً في محفل محلي، ولكن صبحي بركات كان محسوباً على الماسونية العثمانية، الأنضج والأقوى من نظيرتها الدمشقية قبيل الحرب

العالمية الأولى. مع ذلك، عوّضته فرنسا عن خسارته وفرضته فرضاً على الرئيس محمد علي العابد رئيساً للحكومة ما بين ١٩٣٢ و ١٩٣٤. وفي المرة الثانية فاز عليه الرئيس محمد علي العابد المستقل. اعتزل «حقي بك» العمل السياسي بعد خروجه من الحكم وسافر إلى مصر وعاش فيها حتى المات، وفي مسيرته دليل واضح على ضعف الماسونية الدمشقية أمام نظيرتها في المنطقة والعالم[٢٧].

أما الرئيس سعيد الغزي (١٨٩٣-١٩٦٧)، فقد كان رجلاً مستقلاً غير منتم إلى أي حزب، درس القانون في جامعة دمشق وبدأ حياته مدرساً فيها ومحامياً في المحاكم السورية. دخل صفوف الكتلة الوطنية في شبابه وشارك في صياغة أول دستور جمهوري لسورية عام ١٩٢٨ قبل أن يصبح وزيراً للعدل في حكومة صديقه وأخيه في الماسونية عطا الأيوبي عام ١٩٣٦. أعيد إلى نفس المنصب سنة ١٩٤٥ في عهد الرئيس فارس الخوري وإلى وزارة للاقتصاد عام ١٩٤٧ في عهد الرئيس جميل مردم بك، وكلاهما كان أيضاً من الماسون. أصبح رئيساً للمؤتمر الدستوري الذي وضع دستور عام ١٩٥٠، وفي صيف عام ١٩٥٤ عين رئيساً للوزراء للإشراف على الانتخابات البرلمانية والرئاسية، التي يعتبرها المؤرخون السوريون والأجانب الأفضل والأكثر نزاهة في تاريخ البلاد. بقي في هذا المنصب حتى نهاية عام ١٩٥٤، وخلافاً لزملائه في العشيرة السرية، لم ينتقِ سعيد الغزي أي شخصية ماسونية للعمل معه في حكومته الأولى أو الثانية، التي استمرت من أيلول ١٩٥٥ حتى حزيران ١٩٥٦. على العكس، اعتمد الحياد المطلق، فأعطى الشاعر المرموق بدوي الجبل وزارة الدولة للدعاية والأنباء، وجابه العسكر بتعيينه للسياسي المدني رشاد برمدا وزيراً للدفاع. بالرغم من علاقاته الواسعة مع

الغرب، كان سعيد الغزي مهندس التقارب السوري-السوفياتي، فقد وقّع اتفاقية عسكرية مع تشيكوسلوفاكيا، وتبادل السفراء مع الصين الشعبية، ووقّع اتفاقيات تجارية مع بلغاريا وهنغاريا ورومانيا، وأرسل مجموعة من الطلبة السوريين لإكمال دراستهم العليا في ألمانيا الشرقية. مع ذلك سقط سقوطاً مشرفاً عندما اقتحمت مجموعة من طلاب جامعة دمشق مقرّ وزارة الاقتصاد احتجاجاً على رفع حظر بيع الطحين السوري إلى فرنسا خلال ثورة الجزائر، فقدم استقالته على الفور لإرضاء الطلبة وغاب عن المشهد ليعود إلى مكتبه الخاص وعمله الحقوقي حتى انهيار جمهورية الوحدة مع مصر عام ١٩٦١. رُشّح لرئاسة مجلس النواب، ولكن العسكر وقفوا في وجهه وبقي نائباً في البرلمان، بعدما كان رئيساً للحكومة مرتين ومات في دمشق أيام البعث، وهو مهمش سياسياً، يوم ١٨ أيلول ١٩٦٧. مع أن الماسونية الدمشقية لم تُعطِ سعيد الغزي شيئاً يذكر، إلا أنه عمل داخل صفوفها بإخلاص لسنوات، وقدم مقراً مجاناً لمحفل سورية في شارع خالد بن الوليد بدلاً من المقر المؤقت في سوق ساروجا، واستخدمه لإدارة حملاته الانتخابية في الأربعينيات والخمسينيات.

من ضمن إنجازات «محفل سورية» تأسيس جمعية المواساة عام ١٩٤٤ ومستشفى المواساة الخيري في بساتين المزة عام ١٩٥٨. وقد موّل المحفل بناء ١٣ غرفة وشراء عدد من الأجهزة الطبية عبر ثلاثة من أعضاء الجمعية الماسونيين، حسني سبح وسعيد الغزي (كلاهما من مؤسسي محفل سورية) وفارس الخوري (محفل نور دمشق)[٢٨].

الهوامش

١ سعاد جروس، سورية من الانتداب إلى الانقلاب، ٧٢-٧٣.

٢ نفس المصدر.

٣ روبرت موريس، الماسونية في الأراضي المقدسة، ٥٥٩.

٤ روبرت موريس، الماسونية في الأراضي المقدسة، ٥٥٩.

٥ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٢٣٠.

٦ روبرت موريس، الماسونية في الأراضي المقدسة، ٥٥٩.

٧ نفس المصدر، ٥٥٧.

٨ نفس المصدر.

٩ لقاء المؤلف مع الأمير جعفر الجزائري (دمشق، ٥ حزيران ٢٠١٥).

١٠ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٧٩.

١١ نفس المصدر، ٥٥٥.

١٢ نفس المصدر.

١٣ نفس المصدر.

١٤ المقتطف (آذار ١٨٨٣).

١٥ شاهين مكاريوس، أربعة كتب عن الماسونية، ٣٩.

١٦ تيري ميليت، المريول والطربوش، ٥٠.

١٧ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٩٧.

١٨ جيمس كوالتي، سد الانقسام: التغير الاقتصادي والطبقي في بيروت ودمشق العهد العثماني، ٧٨.

١٩ شاهين مكاريوس، أربعة كتب عن الماسونية، ٣٨.

20 نجدت فتحي صفوت، الماسونية في العالم العربي، ٣٣.

21 وثيقة تأسيس محفل الإسعاف من مكتبة المرحوم الدكتور رضا سعيد، تقدمة السيد وفيق رضا سعيد (لندن ٢٠١٦).

22 تيري ميليت، المريول والطربوش، ٨٤.

23 مالك، مذكرات، ٢٩٦.

24 لقاء المؤلف مع الدكتور نقولا أنسطاس شاهين (دمشق، ٢٩ آذار ٢٠١٦).

25 لقاء المؤلف مع الدكتور سامي مدني الخيمي (بيروت، ٢ آذار ٢٠١٦).

26 نفس المصدر ٢٩٠.

27 تيري ميليت، المريول والطربوش ٤٤.

28 حنا مالك، مذكرات، ٢٩٦.

الماسونية الدمشقية في الثلاثينيات

كان العقد الثالث من القرن العشرين حافلاً بالتغيرات في حياة السوريين، وكانت تلك المرحلة تُعَدُّ عصراً ذهبياً بالنسبة إلى الماسونية الدمشقية. فقد تغيّرت العاصمة السورية كثيراً بعد قضاء الفرنسيين على ثورة مسلحة قامت ضدهم عام ١٩٢٥، واستمرت حتى عام ١٩٢٧، حيث دمّر جيش الاحتلال الكثير من الأحياء القديمة والأسواق داخل أسوار دمشق، وأحرق الريف الدمشقي بأكمله. ونزح عدد كبير من أهالي الغوطة الشرقية إلى المدينة هرباً من الموت، مضاعفين عدد سكانها إلى ٢٠٠ ألف نسمة، ما زاد من أعباء توفير السكن والمياه والكهرباء والمدارس للوافدين الجدد. فقدت الأحياء الدمشقية القديمة الكثير من حميميتها ودفئها السابق، وأصبحت الزعامة أصعب على الأعيان، حيث باتت تفرض عليهم المزيد من الجهد والكثير من المال، لأن طبقة جديدة ظهرت في دمشق لم يكونوا

يعرفونها من قبل، ولم تكن تعرفهم، لكنها كانت بأمسّ الحاجة إليهم. وقد غابت الكثير من الوجوه التقليدية عن المشهد الدمشقي، إما هرباً من الحرب إلى بيروت أو القاهرة، أو إبعاداً من قبل سلطة الاحتلال، أو اعتقالاً في أقبية الفرنسيين. كانت دمشق بحاجة لزعماء جدد ولشبكة علاقات جديدة بغية حماية الأهالي ورعاية مصالحهم وتمثيلهم أمام الحكومة.

وجدت المدينة نفسها بين فكَّي كماشة، فالأزمة الاقتصادية العالمية في منتصف الثلاثينيات، ما بين ١٩٣٠ و١٩٣٤، أوصلت عدد العاطلين من العمل إلى أكثر من ١٠٠ ألف شخص، أي ما يعادل ٥٠٪ من أهالي المدينة، وهو أعلى رقم مسجل منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى[1]. وبحسب أرقام غرفة تجارة دمشق، فإن عدد الصناعات اليدوية التقليدية كان قد انحدر من ٧٠٠ إلى ١٠٠ صناعة يدوية عاملة مع بداية عام ١٩٣٣، وترافق هذا الحال مع تدهور حاد في القيمة الشرائية لليرة السورية بسبب انهيار الفرنك الفرنسي المرتبط بالعملة السورية منذ عام ١٩٢٠. أما الدائنون، فالكثيرون منهم لم يستطيعوا الوفاء بالتزاماتهم المصرفية، معلنين إفلاسهم والحجز على أملاكهم، ما أدى أيضاً إلى إفلاس العديد من المصارف المحلية الصغيرة[2].

كانت دمشق بحالة موت اقتصادي سريع، مع تراجع صادرات القطن بنسبة ٨٦٪، والحرير بنسبة ٨١٪، والقمح بنسبة ١٦٪. وقد هبطت قيمة الصادرات السورية ما بين عامي ١٩٢٩-١٩٣٣ إلى النصف، وارتفع عدد المستوردات بنسبة ٣٨٪[3]. وقد أعلن أصحاب مطاحن الميدان إضراباً مفتوحاً، محتجين على زيادة التعرفة الجمركية على الطحين السوري، وقالوا إن سورية تستورد من القمح أربعة أضعاف إنتاجها، وهذا ما أجبر الكثير

من المطاحن على الإغلاق نهائياً ما بين عامي ١٩٣٢-١٩٣٣ [٤]. بالإضافة إلى ذلك، فقد ازداد معدل المستوردات الزراعية بنسبة ١٩٪، وتراجعت صادرات دمشق الزراعية بنسبة ٤٧٪. وقد أتى على سهل حوران جفاف حاد أدى إلى نزوح ٣٠ ألف مواطن إلى دمشق بسبب شحّ المياه في قراهم. حاولت دمشق تزويدهم بصهريجين من المياه أسبوعياً، لكن دون جدوى. ثم جاءت موجة من الصقيع القاسي ضربت جبال القلمون القريبة لتكتمل المصيبة وتؤدي إلى دمار ٦٠٪ من أشجار المشمش في الغوطة الشرقية.

بدأ الماسونيون الدمشقيون يجولون بين الأهالي لسماع مطالبهم الحياتية والاقتصادية والسياسية، محاولين طمأنة الناس والتخفيف عنهم في مصابهم. وكانت مطالب الناس هي ذاتها، تتكرر في كل حيّ وبيت ومتجر: عفو عام عن المعتقلين والمبعدين السياسيين، وحدة الأراضي السورية، وتعويض مالي عن الضرر الناجم عن حرق الغوطة من قبل الفرنسيين عام ١٩٢٥. وكان ما زاد من ألم الناس، ارتفاع القوات الفرنسية في سورية بشكل ملحوظ واستفزازي للأهالي، من تعداد يبلغ ١٢٨٨٩ عسكرياً عام ١٩٢٠ إلى ما يفوق ١٠٠ ألف عسكري مع بداية عام ١٩٣٢ [٥]. كان أهل سورية بأشد الحاجة لأمرين اثنين: الأمل والقيادة في المجتمع. وقد جاء الماسونيون ليعرضوا كلا الأمرين على الناس.

حاول الماسونيون في البداية تقريب عشيرتهم من المجتمع بإبعاد كافة المظاهر الأجنبية عنها. ففي عام ١٩٣٦، على سبيل المثال، صار النشيد الوطني السوري «حماة الديار» نشيداً رسمياً في كل المحافل الماسونية بدمشق، وباتت تلاوته من قبل أعضاء العشيرة لزاماً قبل افتتاح أي جلسة. كان هذا

الأمر تنفيذاً لطلب الرئيس فارس الخوري، الذي صدّق على «حماة الديار» خلال ترؤسه للبرلمان السوري في عهد الرئيس هاشم الأتاسي. بأمر من الرئيس الخوري، اعتمد الماسونيون نشيد «حماة الديار» بدلاً من النشيد الوطني الفرنسي، وقاموا أيضاً بوضع العلم السوري الجديد، المؤلف من ثلاثة ألوان، هي الأخضر والأبيض والأسود، تتوسطه ثلاث نجوم حمراء ترمز إلى ثلاث ثورات ضد المحتل: ثورة الساحل السوري بقيادة الشيخ صالح العلي، وثورة جبل العرب بقيادة سلطان باشا الأطرش، وثورة الشمال بقيادة الزعيم إبراهيم هنانو.

بالإضافة إلى ذلك، منع الرئيس الخوري الأجانب من دخول المحافل الدمشقية، فرنسيين كانوا أو إنكليز، ومنع أيضاً جنود الجيش الفرنسي من الانضمام إلى العشيرة السرية، وقد كانت غالبيتهم من مستعمرات فرنسا الأفريقية، إما سينغاليين أو مغاربة. وأخيراً أمر رئيس البرلمان السوري، والماسوني العتيق، أن تعقد كل الاجتماعات الماسونية باللغة العربية حصراً، ومنع استخدام أي لغة أجنبية في المحافل، بما فيها التركية القديمة الرائجة عند جيل كامل من السوريين. وبدءاً من عام ١٩٣٥، صارت جميع الشهادات الماسونية تكتب باللغة العربية وبخط عربي أنيق. كذلك أمر الخوري أن تعطل جميع المحافل في عيد الاستقلال عن الدولة العثمانية الواقع في الثامن من آذار من كل عام، بدلاً من عيد الثورة الفرنسية المفروض على سورية منذ عام ١٩٢٠ والواقع في الرابع عشر من تموز. بعد الاستقلال عام ١٩٤٦ صار يوم الجلاء الواقع فيه ١٧ نيسان هو العيد الرسمي لكل المحافل الماسونية في سورية. أخيراً، بدأت محافل دمشق تبتعد تدريجياً عن اللون الأزرق المعتمد في لباس المحافل الأوروبية، ولكي تُظهر هذا الاختلاف

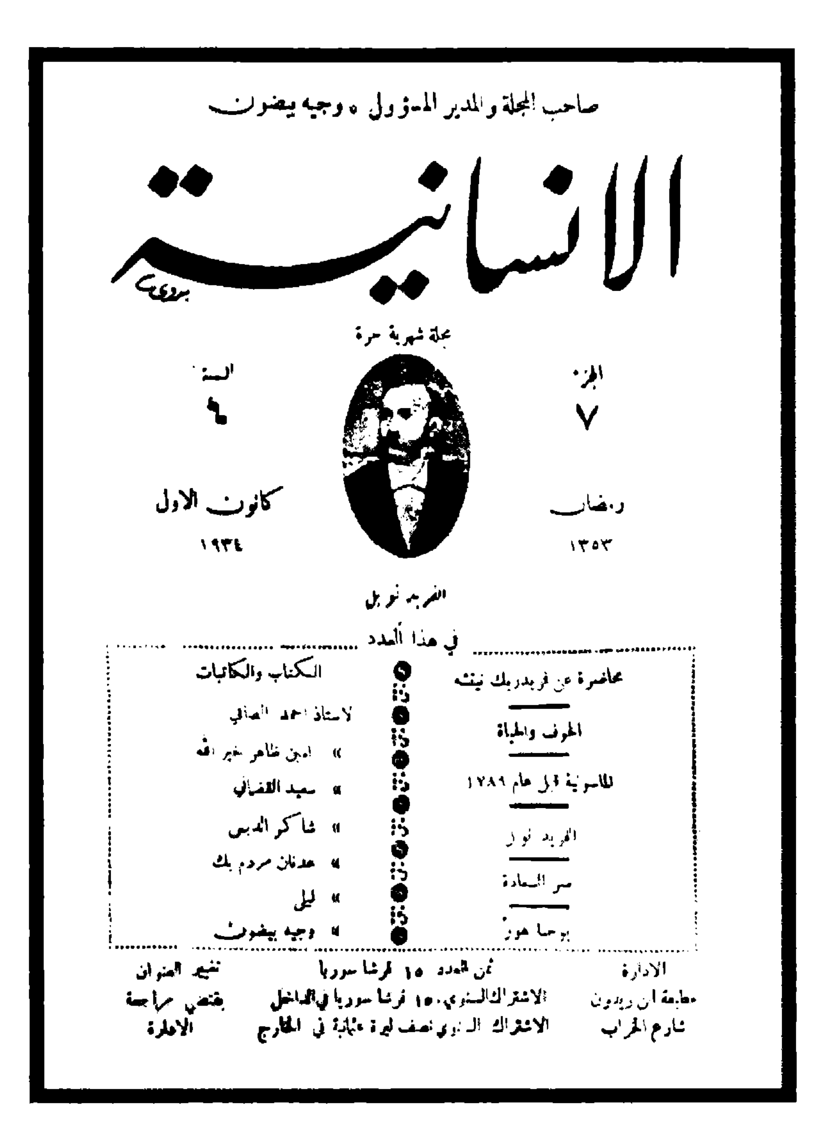
الرمزي اعتمد ماسون دمشق الواناً مختلفة لوزارتهم، منها الأخضر والأحمر والأصفر أو الذهبي[6].

من هنا، بدأ الماسون السوريون عملية «سورنة» المحافل المحلية وفكّ ارتباطها بالمحافل الدولية، ونشطوا بالترويج لأفكارهم في الصحف الماسونية وغير الماسونية أيضاً. اعترفوا بأنّ سورية تعاني من مشاكل مختلفة، وقالوا إنّ الماسونية يمكنها أن تكون الحل في حال قيامها بمراجعة لدورها السياسي والاجتماعي. في ٢٣ نيسان ١٩٣٥ عقد اجتماع مغلق لكافة المحافل الدمشقية لمناقشة مستقبل العشيرة السرية في سورية وتداعيات خمسة عشر عاماً من الاحتلال الفرنسي لبلادهم. وقد خرجوا من اجتماعهم بمقررات صادمة، مطالبين أولاً بإنهاء الانتداب الفرنسي دون قيد أو شرط، وتأسيس جيش وطني لسورية، ونادوا بضرورة انضمامهم إلى عصبة الأمم[7]. وقد كتب الناشر وجيه بيضون، صاحب مطبعة ابن زيدون، وهو من أعيان المسلمين الشيعة في دمشق، مقالاً في شباط ١٩٣٧، معترفاً بأن الماسونية في البلاد العربية تعاني من تفشي الفساد، لأن عدداً كبيراً من محافلها كان يعمل بنحو غير قانوني، إذ تأسست تلك المحافل في زمن الحرب دون استيفاء الشروط اللازمة لدى الأعضاء. وقال بأن الكثيرين من الماسونيين، أو من يدّعون أنهم ماسونيون، عبارة عن مرتزقة ونصابين يستخدمون اسم العشيرة لجني المال والضحك على البسطاء. معقباً بأنه إذا أرادت الماسونية أن تستمر، فعليها أولاً أن تتخلص منهم جميعاً[8]. وتضمن المقال فقرة يقول فيها إن بعض المحافل كان يطلب مبلغاً خرافياً من الأعضاء ثمناً للانتساب، والبعض الآخر كان يجري صفقات تجارية مشبوهة باسم الماسونية، والماسونيون كانوا أبرياء منهم، كما أضاف: إن شروط الانتساب خلال

سنوات الحرب كانت ضعيفة للغاية بسبب قلة الرجال في المجتمع السوري، وأن هناك الكثيرين من الأعضاء ممن لا يصلحون لحمل اللقب الماسوني. نشر بيضون العديد من المقالات مدافعاً عن فكرته، عبر مجلتين ماسونيتين كانتا تطبعان وتنشران من خلال مطابع ابن زيدون، هما مجلة «الإنسانية» ومجلة «كل جديد». وقد كانت كلتا المجلتين مرخصة لدى الحكومة السورية بصفة «مجلة دورية ثقافية أدبية». في عام ١٩٣٨ كتب الماسوني السوري علي نصر الدين مقالاً آخر هاجم فيه أخوته في العشيرة الذين يأتمرون بمحافل أجنبية في نيويورك ولندن، واصفاً جميع هؤلاء بالعبيد لأوروبا والولايات المتحدة. ثم جاء مقال في جريدة «التحرر» الحمصية في أيار ١٩٣٨، يقول كاتبه عبد القادر الجمالي إن الماسونية تعاني من تفشي نفوذ المال السياسي، والاحتلال الفرنسي، وقمع الحريات العامة، وإن الخلاص يبدأ بتوحيد جهود الماسون ضد هذه التحديات الثلاثة[٩].



دولة الرئيس فارس الخوري الذي أمر بسورنة المحافل الماسونية
بدمشق عند توليه رئاسة مجلس النواب للمرة الأولى عام ١٩٣٦.



صاحب المجلة والمدير المسؤول : وجيه بيضون

الانسانية

مجلة شهرية حرة

الجزء		السنة
٧		٤
رمضان		كانون الاول
١٣٥٣		١٩٣٤

الفرِيد نوبل

في هذا العدد

الادارة
مطبعة ابن زيدون
شارع الحراب

ثمن العدد ١٥ قرشا سوريا
الاشتراك السنوي ١٥٠ قرشا سوريا في الداخل
الاشتراك السنوي نصف ليرة عثمانية في الخارج

تغيير العنوان
يقتضي مراجعة
الادارة

مجلة «الانسانية» الماسونية الصادرة في دمشق عام ١٩٣٤ لصاحبها الناشر وجيه بيضون.

مضامين العدد

رسوم العدد

الأخ الكلي الاحترام تشارل جونسون السكرتير الاعظم في المحفل النيوركي الاكبر

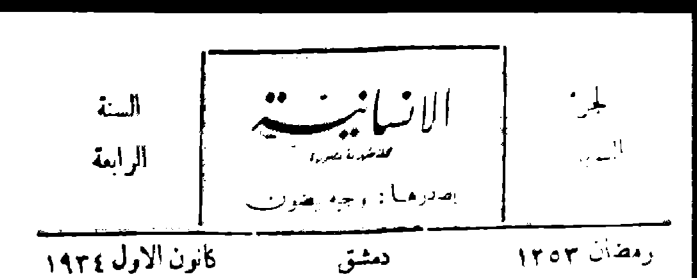
الأخ الكلي الحكمة مصطفى القباني رئيس مقام بردى ومحفل ابراهيم الخليل

الأخ الاستاذ شاكر الدبس رئيس الطائفة الانجيلية بدمشق وأحد ادبائنا اللامعين

الكاتب الفرنسي الكبير هنري بيدو

المحسن الانساني الخالد الفريد نوبل

الصفحات الداخلية لمجلة «الانسانية».



الجزء السادس — الإنسانية — مجلة شهرية مصورة — يصدرها : وجيه بيضون — السنة الرابعة

رمضان ١٣٥٣ — دمشق — كانون الاول ١٩٣٤



« هنري بيدو »

فريدريك نيتشه

محاضرة للكاتب الفرنسي الكبير

هنري بيدو

سواء أعرفنا أم لم نعرف ، فان حياة المرء مأساة ، وحوادثها تجري تبعاً لما يستحق . إلا أن هنالك طائفة خاصة تكاد تكون عرضة لانتقام القدر ، وهدفاً لسهام الحوادث ، وآلامها بعيدة عن الاسباب الخاصة ، محصورة في تقديم الخير والنور للبشر . واني لمحدثكم عن فرد من هذه الطائفة ، فأسرد تاريخه ، وأريكم كيف اتفقت أفكاره وبوارحه على أن لا يفترقا . وقليلٌ من عاش عيشه .

وأول ما يبدو أن جميع القواعد والمبادئ والتقاليد قد ساورت طفولة نيتشه وأثرت في توجيهها . لقد كان جده وأهله من ابيه اساتيذ في اللاهوت كما أن أباه « كارل لدويج نيتشه » كان راعياً للكنيسة ، محمود المآثر من رؤسائه ، مأثور المحامد لدن سلطانه ، وكانت زوجه دونه عمراً بثلاث عشرة سنة ، من عائلة اشتهرت برعايتها . فالمحيط الذي عاش فيه عريق في الهدوء الى ما لا زيادة ، بعيد كل البعد عن إمكان نمية روح الهدم .

ولقد كتب الاستاذ دانيل هاليفي عن كارل لدويج هذا فقال : « كان في معزل ...

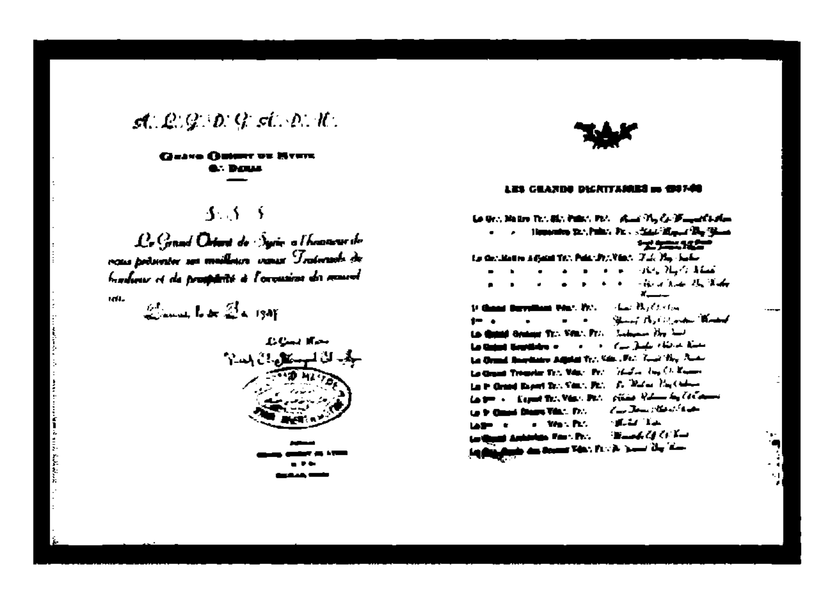
الصفحات الداخلية لمجلة «الانسانية».

المحفل السوري الأكبر

بشكل عام، كان الدمشقيون يفضلون الانتساب إلى محافل إسكتلندية وعربية، بسبب إرثها المناهض للاستعمار الأوروبي في الشرق الأوسط، ولم يكونوا يفضلون الاقتراب من محافل لندن وباريس، المعروفة بعلاقتها الوثيقة بأباطرة المال الصهاينة. وقد أدى هذا الأمر إلى تنافس واضح وحادّ بين المحافل التابعة لإسكتلندا مع نظرائها التابعة لنيويورك وباريس ولندن، والتي كانت مؤيدة بالطبع لحكومة الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان، والبريطاني في فلسطين. وكان البعض من السوريين ممن عرفوا بتأييدهم ودفاعهم عن حكم الفرنسيين لسورية قد أسسوا محفلاً جديداً لهم سموه «محفل الشرق السوري الأكبر»، وذلك في شارع الملك فؤاد بدمشق يوم ١٣ نيسان ١٩٣٥، وأتبعوه بالمحفل الأكبر الفرنسي[١٠]. فقام الوطنيون السوريون من الماسون بالردّ عليهم من خلال إنشاء محفل رديف، سموه «محفل سورية الأكبر»، وأتبعوه بالمحفل الأكبر الإسكتلندي، وكان هذا الأمر قد تمّ على يد الوطني النبيل عطا الأيوبي عام ١٩٣٩.

كان عطا الأيوبي من خيرة الدمشقيين علماً ومكانة وخبرة، ولد في دمشق عام ١٨٧٧ ودرس الإدارة العامة في جامعات إسطنبول حيث انتسب إلى الماسونية عبر محفل «نور دمشق» يوم ١٤ نيسان ١٩١٠. دخل سلك الوظيفة الحكومية وأصبح محافظاً لمدينة اللاذقية ثم وزيراً في الحكومة السورية المؤقتة التي شكّلها صهره الماسوني الأمير سعيد الجزائري يوم خروج آخر جندي عثماني من دمشق في أيلول عام ١٩١٨. كان ذلك الأمر عملاً طوعياً لحماية دمشق من الفوضى، ولم يتقاضَ الجزائري أو الأيوبي يومها أي راتبٍ أو مبلغٍ

مالٍي من أجله، وكان بصحبتهم أربعة من أخوتهم في الماسونية: جميل الإلشي، شاكر الحنبلي، فارس الخوري والشيخ طاهر الجزائري. في تموز من عام ١٩٢٠ أصبح الأيوبي وزيراً للداخلية قبل أيام من احتلال الفرنسيين لمدينة دمشق. عمل «عطا بك» على محاربة الانتداب من اليوم الأول، فأرسل المال والسلاح إلى ثورة الساحل السوري وثورة الشمال. نجا من محاولة اغتيال في ذلك الصيف في قرية خربة غزالة في سهل حوران، التي قتل فيها زميله الماسوني عبد الرحمن باشا اليوسف ورئيس الوزراء علاء الدين دروبي على أيدي عملاء فرنسيين متنكرين بزي الثوار. عمل الأيوبي أيضاً وزيراً للعدلية في عهد الانتداب الفرنسي، وأصبح رئيساً للوزراء مرتين عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٣، إذ أشرف على انتخابات برلمانية ورئاسية أدت في المرة الأولى إلى انتخاب زعيم الحركة الوطنية هاشم الأتاسي رئيساً للبلاد، وفي المرة الثانية إلى انتخاب الوطني الكبير شكري القوتلي. في حكومته الأولى عين الرئيس الأيوبي زميله في الماسونية الأمير مصطفى الشهابي وزيراً للمعارف، وسعيد الغزي وزيراً للعدل، وفي الثانية، أعطى حقائب المال والإعاشة والتموين للشهابي نفسه وعيّن السياسي الحلبي المرموق نعيم إنطاكي وزيراً للخارجية.



Le Grand Orient de Syrie a l'honneur de vous présenter ses meilleurs vœux fraternels de bonheur et de prospérité à l'occasion du nouvel an.

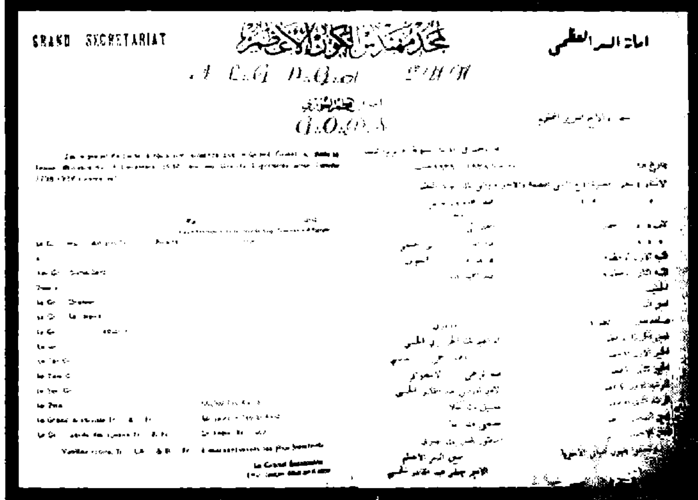
Le Grand Maître

LES GRANDS DIGNITAIRES

محضر رسمي لمحفل الشرق الأعظم السوري عام ١٩٣٧، يظهر فيه الأمير جعفر والأمير إدريس من عائلة الأمير عبد القادر الجزائري وبهيج الخطيب رئيس حكومة المديرين في سورية خلال الحرب العالمية الثانية.



الشرق الاعظم السوري



GRAND SECRETARIAT

امانة السر العظمى

G.O.O.S

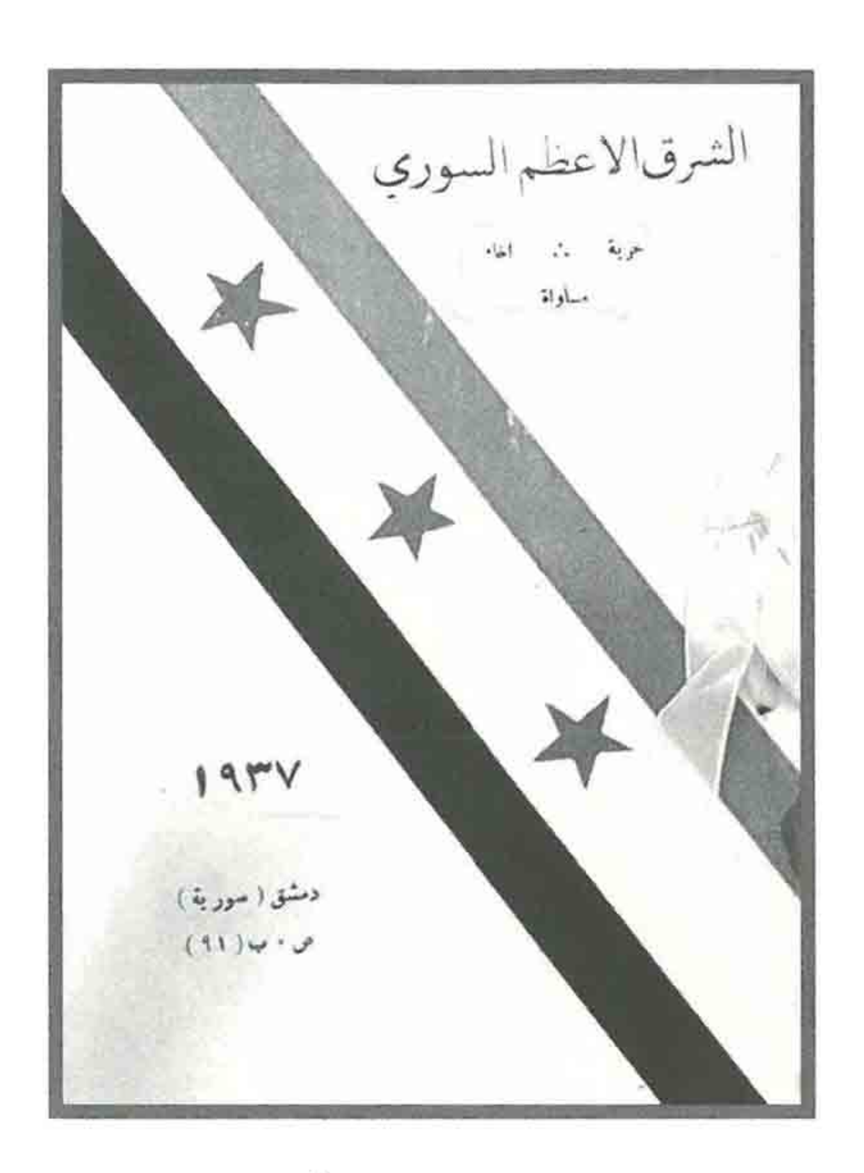
من أوراق وأرشيف محفل الشرق الأعظم السوري.


GRAND ORIENT DE SYRIE
UNION FORCE PROGRES

العنوان : الشرق الأعظم السوري
صندوق البريد رقم ٩١
دمشق – سورية

بمجد مهندس الكون الأعظم
A L.G.D.G.A.D.L'U.
G.O.D.S.

من أوراق محفل الشرق الأعظم السوري.



غلاف دعوة صادرة عن محفل الشرق الأعظم السوري.

كان عطا الأيوبي من مؤسسي محفل الإسعاف الدمشقي رقم ٢٨٠، الذي كان يتبع للمحفل الأكبر المصري، وبعد ست سنوات قدم أوراق محفله الجديد، محفل سورية الأكبر، للحكومة السورية أيام الرئيس محمد علي العابد الذي وافق على الفور وأعطاه الترخيص المطلوب لمباشرة العمل. في حفل الافتتاح، شرب عطا الأيوبي نخب الرئيس العابد تكريماً له، وبعدها وزّع المناصب الداخلية على موظفي المحفل الجديد المناهض للاحتلال الفرنسي. فعيّن المصرفي الكبير حسن الحكيم (ابن حيّ الميدان الذي خلف الأيوبي لاحقاً في رئاسة الحكومة السورية) نائباً له في المحفل السوري الأكبر، ومعه الدكتور رضا سعيد رئيس الجامعة السورية. كذلك عيّن الأيوبي الوجيه شاكر الدبس، رئيس الكنيسة الإنجيلية في دمشق، سكرتيراً للمحفل الجديد. درس الدبس، البالغ ٣٦ عاماً من العمر يومها، في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي سنوات لاحقة أصبح مديراً لدائرة الأمم المتحدة في وزارة الخارجية السورية ومستشاراً للسفارة السورية في لندن في عهد الاستقلال. كان من ضمن أعضاء محفل الأيوبي أيضاً صديقه وصهره الأمير سعيد الجزائري والطبيب الجراح عبد القادر زهرا، أحد مؤسسي كلية الطب في دمشق والمنشق عن محفل إبراهيم الخليل التابع لنيويورك.

لم يدم «محفل سورية الأكبر» طويلاً، بسبب محاربة السلطات الفرنسية له، وأغلقه المندوب السامي الفرنسي هنري دانتز عام ١٩٤٠ مع بداية الحرب العالمية الثانية. خلال عمره القصير أعطى المحفل براءات لعدة محافل محلية مستقلة عن الفرنسيين، ستٌّ منها في دمشق وحدها: محفل الإيمان، ومحفل التوفيق، ومحفل النهضة، ومحفل الأندلس، ومحفل الاتحاد، ومحفل اليرموك. ضم أكبرهم ١٥٠ عضواً، بينما لم يتجاوز عدد الأعضاء في أصغر المحافل تلك ٢٥ عضواً، وقد أغلقت حكومة الانتداب جميع هذه المحافل في عام ١٩٤٠.



جلسة رسمية لمحفل سورية الأكبر في الثلاثينيات يظهر فيها دولة الرئيس عطا الأيوبي (الثالث من اليمين)، ويليه القاضي حنا مالك.



الوطنيون السوريون في محفل سورية الأكبر عام ١٩٣٦. الثالث من اليمين هو الرئيس لطفي الحفار يليه الرئيس جميل مردم بك ثم رئيس المحفل القاضي حنا مالك وبعده الرئيس عطا الأيوبي.



عشاء في منزل رئيس الحكومة عطا الأيوبي على شرف وفد الكتلة الوطنية العائد من باريس في أيلول ١٩٣٦. اليمين (من عمق الطاولة)، وزير المعارف الأمير مصطفى الشهابي، عضو المكتب الدائم للكتلة الوطنية سعد الله الجابري، المفوض السامي الفرنسي هنري دي مارتيل، عضو المكتب الدائم جميل مردم بك، وزير الاقتصاد مصطفى القصيري. اليسار (بنفس الترتيب)، غير معروف. غير معروف، عضو المكتب الدائم شكري القوتلي. غير معروف، رئيس الكتلة هاشم الأتاسي، مسؤول فرنسي، الرئيس عطا الأيوبي، وزير العدل سعيد الغزي.



الرئيس المنتخب هاشم الأتاسي ومعه رئيس الوزراء عطا الأيوبي
على مدخل السرايا الكبيرة في دمشق عام ١٩٣٦.



الرئيس عطا الأيوبي متفقداً صناديق الانتخابات عام ١٩٤٣.

الهوامش

١ فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ٣٩٧.

٢ مركز وثائق الخارجية الفرنسية، ٣٧١-١٦٩٧٤ (١ تموز ١٩٣٣).

٣ نفس المصدر.

٤ مركز وثائق الخارجية الفرنسية، ٣٧١-٢٠٩١، العدد ١٦٩٧٤ (٣١ آذار ١٩٣٣).

٥ ثومسون، مواطنو المستعمرات، ٤٩.

٦ دوروثي سومرز، الماسونية في الإمبراطورية العثمانية، ٩٦.

٧ لقاء المؤلف مع الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل نور دمشق (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥).

٨ مجلة الإنسانية (شباط ١٩٣٧).

٩ التحرر، العدد التاسع (أيار ١٩٣٨).

١٠ جريدة الأيام (١٥ نيسان ١٩٣٥).

عهد الاستقلال

عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وحصول سورية على استقلالها من الفرنسيين، نهض الماسون الدمشقيون مرة أخرى ليؤسسوا محفلاً جديداً لهم حمل اسم «محفل سورية ولبنان»، وكان ذلك في عام ١٩٤٩، وتأسست مع هذا المحفل ثلاثة محافل صغيرة، هي: محفل أمية في العاصمة، ومحفلا خالد بن الوليد والعروبة في حيّ الحميدية بحمص وسط البلاد. كانت هذه التجربة هي الأنضج من سابقاتها، حيث ضمّت هذه المحافل عدداً أكبر من الأعيان من مناطق ومذاهب مختلفة. كان أربعة من أعضاء المحفل الجديد وزراء سابقين، هم شاكر الحنبلي والأمير عادل أرسلان، وتوفيق شامية ويوسف الحكيم، وهم خليط من الموحدين الدروز والمسيحيين، وكان معهم الثري الدمشقي المسلم محمد الميداني، والطبيب والضابط السابق في

الجيش العثماني جورج لاذقاني[1]. وكان من بين الأعضاء المؤسسين لمحفل سورية ولبنان أيضاً الصحفي الكبير وجيه الحفار، صاحب جريدة الإنشاء الدمشقية وابن عم رئيس الوزراء الأسبق الماسوني أيضاً لطفي الحفار. كان توفيق شامية ويوسف الحكيم من وجهاء الطائفة الأرثوذكسية، وقد تناوبا على حقائب النقل والتجارة والزراعة والعدل. أما الأمير عادل أرسلان، فهو من لبنان، عيّنه الرئيس شكري القوتلي نائباً عن الجولان في البرلمان السوري، وعُيِّن وزيراً للخارجية في عهد الزعيم حسني الزعيم. وكان والده ماسونياً، وكذلك شقيقه الشاعر والكاتب الكبير الأمير شكيب أرسلان، أحد مفكري القومية العربية في عصره. ضم «محفل سورية ولبنان» مدير إدارة البرق والبريد في سورية إبراهيم كنعان، ومؤسس معهد الموسيقى الشرقية القاضي أحمد عزت الأستاذ، الذي أصبح رئيساً لمحفل أمية الأكبر. في عام ١٩٤٩ أقام «محفل سورية ولبنان» حفلاً تكريمياً كبيراً على شرف فوزي القاوقجي، قائد جيش الإنقاذ في فلسطين والذي حارب العصابات الصهيونية مرتين خلال الثورة الفلسطينية الأولى عام ١٩٣٦ وخلال حرب فلسطين الكبرى ما بين ١٩٤٧-١٩٤٨. في سنواتٍ لاحقة عند توجيه الاتهامات إلى الماسون السوريين بالارتباط بالصهيونية، كان البعض يشير إلى هذا الحفل ويتساءلون: كيف لتنظيمهم أن يكون كذلك، وقد كرّم شيخ المقاومين العرب في فلسطين؟

القطب الاعظم الحالي
للمحفل الاكبر السوري العربي (دمشق)



الأخ الامير محمد سعيد حفيد الامير
عبد القادر الجزائري

انتسب الى الماسونية في المحفل الاكبر
الوطني المصري على عهد الملك فؤاد الاول ثم
رقي الى اعلى الدرجات حتى نال لقب الاستاذ
الاعظم الشرفي للمحفل الاكبر المشار اليه .

ثم في عام ٩٤٨ نودي به قطباً اعظماً للمحفل
الاكبر اللبناني ثم في عام ١٩٤٩ جرى انتخابه
استاذاً اعظماً ايضاً . ثم في ٢٧ تموز سنة ٩٥٠
بويع قطباً اعظماً ابدياً مدى الحياة تقدير الخدماته
يحمل شهادات وبراءات واوسمة ممتازة
عنوانه : دمشق شارع ابي العلاء المعري
رقم الهاتف ١٤٠١٢

سيرة الأمير سعيد الجزائري الماسونية وصورة بلباسه الرسمي كما وردت
في المطبوعة الرسمية للمحفل الأكبر السوري العربي عام ١٩٥١ .

« النشرة العامة »
رقم ٦



المحفل الاكبر السوري العربي

نشرة الفخر والشرف

اسماء جمع من الاخوان العظام

[مع حفظ جميع الالقاب الماسونية والمدنية]

(اصدار)
(لجنة النشر والدعاية المحفل الاكبر السوري العربي)

المخابرات بعنوان :
امين السر العام الاعظم
دمشق ـ سوق ساروجة ـ سلطاني عيد

المحفل الاكبر السوري العربي

المحفل الأكبر السوري العربي.



الآمر والاستاذ الاعظم الحالي

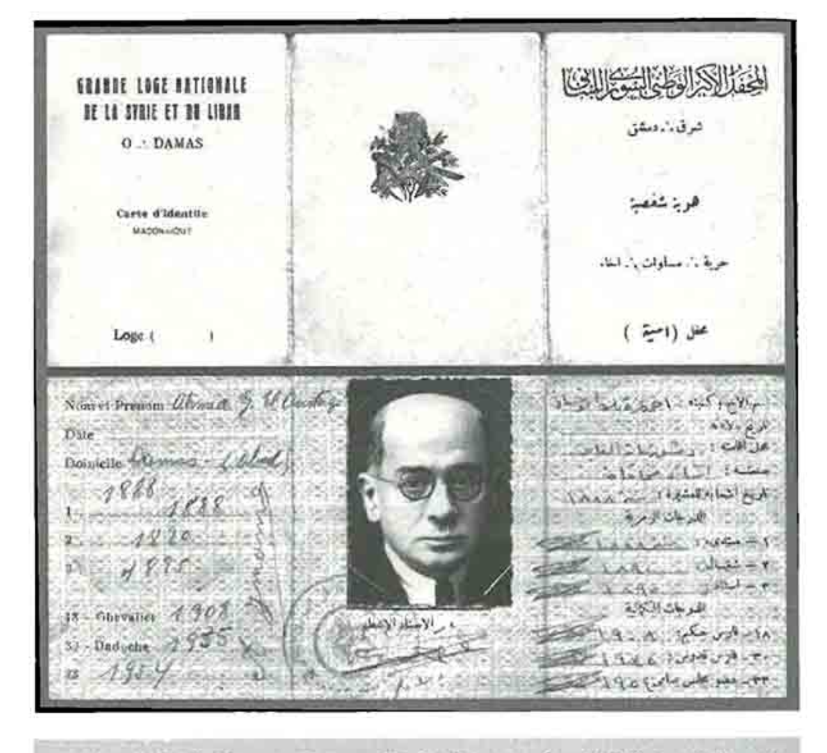
الاخ الزعيم الدكتور عبد القادر الزهراء

انتسب الى الماسونية في م . . ابراهيم الخليل
التابع للمحفل الاكبر السوري كي ش . . دمشق
ثم تدرج في درجاتها حتى نال د . . . ٣٣ من
المجلس السامي السوري العربي ش . . . دمشق
ثم في عام ١٩٥١ تم انتخابه وتنصيبه آمراً
واستاذاً اعظماً للمحفل الاكبر السوري العربي
لعامي ٩٥١ — ٩٥٢
عنوانه : دمشق — سوق ساروجة
الهاتف : العيادة والمنزل ١٠٥٩١

سيرة الدكتور عبد القادر زهرا، أحد رؤساء المحفل الأكبر السوري العربي في عهد الاستقلال.



الأمير عادل أرسلان متوسطاً رئيس الجمهورية شكري القوتلي ورئيس الوزراء جميل مردم بك خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨ .


GRANDE LOGE NATIONALE
DE LA SYRIE ET DU LIBAN
O.·. DAMAS

Carte d'Identité
MAÇONNIQUE

Loge ( )

المحفل الأكبر الوطني السوري اللبناني
شرق .·. دمشق

هوية شخصية

حرية .·. مساواة .·. إخاء

محفل (أمية)

Nom et Prenom
Date
Domicile
1.
2.
3.
18 - Chevalier
32 - Dadoche
33

الدرجات الرمزية
الدرجات التكميلية

الهوية الماسونية للقاضي أحمد عزت الأستاذ، صادرة عن محفل أمية في دمشق.



أحمد عزت الأستاذ بلباسه الماسوني الرسمي.

المستشار الاعظم لمجلس الشيوخ العارفين ومقام الفرسان الحكماء

الاخ (عمر محمد بشنالي)

[illegible] الى الماسونية عام ٩٢٦ في محفل [illegible] الاسكندري [illegible] ١٨ [illegible] الفرسان الحكماء [illegible] ٣٠ الشيوخ [illegible] من مجلس السامي السوري [illegible] المستشار الاعظم لمجلس الشيوخ [illegible] ومقام ابن [illegible] اللاذقية

[illegible] اللاذقية رئيس المنطقة [illegible]

عضو المجلس السامي

الاخ (شمس الدين نقشبندي)

انتسب الى الماسونية عام ١٩٣٦ في محفل طارق ونال درجة ١٨ من مقام المبة ... ٣٠ - ٣٣ من المجلس السامي السوري العربي يحمل براءة وشهادات ووسام

منزله دمشق - مرافق رئيس الجمهورية السورية وضابط في الامن العام .

امين الخليفة [illegible]

الاخ الشيخ محمد ابو الخير [illegible]

انتسب الى الماسونية سنة ٩٢٦ في م طارق [illegible] دمشق [illegible] ١٥ من مقام [illegible] ووسام وبراءة وشهادة .

العنوان : دمشق [illegible]

[illegible]

الاخ الخوري موسى الخوري

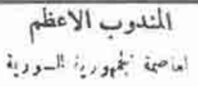
انتسب الى [illegible] عام ١٩٢٨ في [illegible] دمشق [illegible] السوري العربي [illegible] وشهادة

العنوان : [illegible]



أعضاء المحفل الأكبر السوري العربي في الخمسينيات.

المندوب الاعظم





الاخ (احمد عزت الاستاذ)

انتسب الى الماسونية في م . . اسكلة سليمان ش . . يافا الاسكتلندي ونال د . ١٨ من المشرق الاعظم العثماني عام ١٨٩٠ ود . . ٣٠ من المجلس السامي السوري العربي يحمل البراءات والشهادات والاوسمة العالية .

العنوان : دمشق بناية العابد

المندوب الاعظم

لدى المحافل المتحابة لمحافظة حلب



الاخ (الدكتور مؤيد حسني باشا .

انتسب الى الماسونية في محفل ابي العلاء المعري ش : دمشق ونال د . . ١٨ عام ١٩٥١ في مقام النيربين من المجلس السامي السوري العربي وقد مثل المحفل الاكرم لدى المحافل الكبرى والشروق العظمى في فرانسا يحمل البراءات والشهادات ووسام الاخلاص الماسونية

عنوانه : حلب - باب النصر

الهاتف (١٥٩٩٦) عيادة (١٥٢٦٣) البيت

أعضاء المحفل الأكبر السوري العربي في الخمسينيات.

غاب ماسونيو دمشق عن المشهد السياسي لمدينتهم ما بين عامي ١٩٤٨-١٩٥٨ بسبب الشائعات والاتهامات المتزايدة عن تورط تنظيمهم في احتلال فلسطين وقيام دولة إسرائيل. ولم يرغبوا في دخول سجال عقيم أو في إثبات وطنيتهم وإخلاصهم لأحد. وحدث أن قام وفدٌ ماسوني مصري بزيارة دمشق في حزيران من عام ١٩٥٧، برئاسة رئيس محفل مصر الكبير طه مخلوف، ولم تغطِّ أي جريدة محلية خبر الزيارة، ولم تُنشر أي صورة لجولاتهم على محافل حلب وحمص واللاذقية. أصبحت المواضيع الماسونية غير مرغوب فيها عند القارئ السوري، وباتت تثير الكثير من الأسئلة التي كانت الصحف بغنى عنها خوفاً على سمعتها لدى المعلنين. في نفس العام قامت محافل دمشق ببناء مشفى صغير في سوق الدرويشية وتمويل علاج ٤٥ مصاباً بالملاريا، ومعالجة ٣٣٢ فقيراً يعانون من أمراض جلدية وباطنية وعصبية وصدرية. وقد نُشرت أخبار تلك العمليات في دوريات المحافل الداخلية، ولكن لم ترسل إلى الصحف تجنباً لرفض نشرها من قبل إدارات الجرائد اليومية، ولم تحصل أي منها على ثناء أو تقدير من مديرية الصحة في دمشق.

في عام ١٩٥٨ نشر الصحفي جورج فارس كتابه الموسوعي «من هم في العالم العربي»، وطلب من كافة أعيان سورية تزويده بصورهم وبسيرتهم الذاتية. جميعهم فعل، ولكن بخلاف ما كان يحصل في السنوات الماضية، لم يجرؤ أحد على ذكر نشاطه الماسوني إلا اثنين فقط من بين كل السوريين، الأمير سعيد الجزائري وشاكر الدبس، وكلاهما عضو في محفل سورية ولبنان. أما حسن الحكيم وفارس الخوري وجميل مردم بك ولطفي الحفار ووجيه الحفار وحسني سبح، ففضلوا إسقاط هذا القسم من ماضيهم في سيرهم الذاتية

في كتاب «من هم». وفي عام ١٩٥٧ أقام المحفل الإقليمي في لبنان دعوة لرئيس الوزراء سامي الصلح، المنتمي إلى «محفل سورية ولبنان»، لحضور المؤتمر الثامن للماسونية في لبنان، الذي يضم الشروق والمحافل الكبرى اللبنانية. عرض على الرئيس الصلح أن يكون رئيساً فخرياً للجلسة، ولكنه اعتذر عن عدم الحضور ولم يرسل من ينوب عنه[٢].

بدأت أنوار المحافل الماسونية تنطفئ تدريجياً، وبدأت تغيب معها الأنشطة العلنية والحملات الانتخابية لأعضائها المرشحين للمجالس المحلية والنيابية. حتى جريدة «الإنشاء» المملوكة من ماسونيين اثنين هما لطفي ووجيه الحفار، توقفت عن نشر أخبار المحافل الدمشقية، خوفاً من غضب الشارع السوري أو خشية من إثارة شكوك أجهزة الأمن التابعة يومئذٍ لعبد الحميد السراج. كان هذا بالرغم من أن رئيس البلاد في بداية الخمسينيات الزعيم فوزي سلو، ومعه العقيد أديب الشيشكلي، كانا عضوين في الماسونية الدمشقية.

الهوامش

١ مجلة كل جديد (العدد الثامن، آب ١٩٤٨).

٢ حادثة الماسونية والماسونيون في العالم العربي، ٣٢.

الماسونية والانقلابات

بدأ عهد الانقلابات في سورية في آذار ١٩٤٩ عندما أطاح رئيس أركان الجيش حسني الزعيم برئيس الجمهورية شكري القوتلي ووضعه في سجن المزة العسكري مع رئيس الحكومة خالد العظم. لا يوجد أي علاقة للماسونية الدمشقية أو العالمية بهذا الانقلاب، ولا موقف لهم منه أو من صانعه، علماً أن حسني الزعيم قدم عدة خدمات لإسرائيل وأميركا خلال فترة حكمه القصيرة لسورية، فوقّع مثلاً هدنة مع الدولة العبرية، وعرض اتفاقية سلام على ديفيد بن غوريون، واقترح توطين اللاجئين الفلسطينيين في شمال شرق سورية مقابل دعم مالي وعسكري من الولايات المتحدة. إضافة إلى ذلك، وافق الزعيم على حظر الحزب الشيوعي السوري لإرضاء الأميركيين في بدايات الحرب الباردة، وعلى

مرور خطوط النفط الأميركية (التابلاين) من صحراء السعودية، إلى لبنان عبر الأراضي السورية.

في صيف عام ١٩٤٩ وبعد انتخابه رئيساً للجمهورية، أمر حسني الزعيم بتسليم أنطون سعادة، مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي، للسلطات اللبنانية حيث حوكم صورياً أمام القضاء وأعدم رمياً بالرصاص بأمر من رئيس الوزراء رياض الصلح بتهمة الخيانة والتآمر على الدولة. كان سعادة يُعدّ لثورة عسكرية في لبنان بدعم سوري وحماية من حسني الزعيم الذي أبرم صفقة تقضي بتسليمه للسلطات اللبنانية مقابل اعتراف لبناني رسمي بصانع الانقلاب السوري. الغريب هنا هو أن كلا الخصمين، أنطون سعادة ورياض الصلح، كانا من الماسون، يمثلان توجهاً مختلفاً ومتناقضاً تماماً في السياسة اللبنانية. الصلح كان من صانعي الجمهورية اللبنانية الحديثة ومدافعاً عن عروبتها واستقلالها، وأحد واضعي ميثاقها الوطني القاضي بتوزيع المناصب الرئاسية توزيعاً طائفياً ومتساوياً، ولكن سعادة كان علمانياً معارضاً لهذا الكيان الوليد الناتج من حدود سايكس بيكو، داعياً لعودة لبنان الكبير إلى الوطن السوري الأم ضمن مشروع وحدوي وجغرافي متكامل، عرف يومها بسورية الكبرى. كيف لماسوني لبناني رفيع أن يأمر بإعدام ماسوني لبناني آخر، من نفس الرتبة الماسونية؟ وكيف للماسونية العالمية أن تسمح بتصفية رجل من هذا الحجم، علماً أن أنطون سعادة ووالده من قبله كانا من أبرز الماسونيين العرب في الأرجنتين، حيث عاشا لسنوات طويلة؟ وكيف للماسونية أن لا تحمي أنطون سعادة من الموت عندما كان ضيفاً في دمشق، علماً أنها كانت موجودة بقوة في قصر حسني الزعيم؟ المصيبة كبيرة إن لم تكن قادرة على الوصول إليه لإنقاذه من

الخيانة والإعدام، وتكون أكبر بكثير لو لم تكن تعلم ما يُعَدّ لأنطون سعادة على يد حسني الزعيم. السؤال الاخير، ولا نملك إجابة عنه طبعاً، أنه إذا كان رياض الصلح قد أعدم أنطون سعادة بأمر من الماسونية نفسها، فلماذا سمحت الماسونية لهذا الرجل «المخلص» بأن يسقط قتيلاً هو الآخر بعد ستين فقط عندما قُتل في العاصمة الأردنية عمان على يد شاب من حزب سعادة يوم ١٦ تموز ١٩٥١؟

لا يمكن التكهن طبعاً لأنه لا يوجد أي وثيقة أو نص في هذا الموضوع، الذي انعكس سلباً على حسني الزعيم وأدى إلى مقتله أيضاً في شهر آب عام ١٩٤٩ على يد اللواء سامي الحناوي، أحد الضباط المؤسسين للجيش العربي السوري، المقرب من العراق والذي خدم مع الزعيم في حرب فلسطين عندما كان الأول رئيساً للأركان، والثاني قائداً لإحدى الجبهات. القاسم المشترك بين الانقلاب الأول والثاني والثالث والرابع في سورية هو ضابطان اثنان ارتبط اسماهما ببعض بشكل وثيق، وتبين أن كليهما كانا عضوين في الماسونية الدمشقية، هما فوزي سلو وأديب الشيشكلي.

الرئيس فوزي سلو (١٩٠٥-١٩٧٢)، بدأ حياته ضابطاً في جيش الشرق الفرنسي، وكان من الآباء المؤسسين للجيش السوري بداية عهد الاستقلال. عين مديراً للكلية الحربية في حمص، ثم شارك في حرب فلسطين، وبعدها بانقلاب حسني الزعيم سنة ١٩٤٩. خلال عهد الزعيم عُين فوزي سلو ملحقاً عسكرياً لمفاوضات الهدنة بين سورية وإسرائيل، ثم تحالف مع العقيد الشيشكلي، الصديق القديم في معارك فلسطين، وشاركا في انقلاب اللواء سامي الحناوي على حسني الزعيم في صيف ذلك العام المصيري من

حياة سورية. في نهاية العام نفسه قام الرجلان بانقلاب عسكري جديد على سامي الحناوي، الطامع بتوحيد سورية والعراق تحت العرش الهاشمي، ولكنهما أبقيا على حكام سورية المدنيين، الممثلين بالرئيس الجليل هاشم الأتاسي. من كانون الأول ١٩٤٩ وحتى تشرين الثاني ١٩٥١، فرض أديب الشيشكلي صديقه الزعيم سلو وزيراً للدفاع في كافة الحكومات الوطنية، لإجهاد أي مشروع وحدة سورية عراقية قد يُطرح داخل مجلس الوزراء، معلناً أن سورية لن تحكم من قبل ملوك بغداد الهاشميين. اعتبر الرجلان أن الحكم الهاشمي لا يجب أن يعود إلى سورية لأنه مرتبط ببريطانيا العظمى، وعملا على تقليم أظفار كل من دعم هذا المشروع من السوريين، تحديداً من حزب الشعب المحسوب على تجار مدينة حلب وزعمائها. في نهاية عام ١٩٥١، تعاون الرجلان مرة أخرى في انقلاب جديد، هو الرابع في تاريخ البلاد منذ الاستقلال، وقاما باعتقال رئيس الحكومة الدكتور معروف الدواليبي من حزب الشعب، وكافة وزرائه، ما أدى إلى استقالة الرئيس الأتاسي من الحكم. الانقلاب الرابع كان من صنع العقيد الشيشكلي وحده، الذي فرح لمغادرة هاشم الأتاسي وأمر بتسلّم فوزي سلو مهمات رئاسة الدولة وصلاحياتها بالكامل، إضافة إلى حقيبة الدفاع ورئاسة مجلس الوزراء، مكتفياً بمنصب نائب رئيس الأركان العامة.

حكم أديب الشيشكلي سورية عبر صديقه فوزي سلو من شتاء عام ١٩٥١ وحتى صيف سنة ١٩٥٣، عندما تنازل الأول للأخير وغاب عن المشهد السياسي السوري بشكل نهائي، وعمل لفترة مستشاراً للملك سعود بن عبد العزيز بعد إصدار حكم الإعدام بحقه بعد سقوط الشيشكلي عام ١٩٥٤. عاد بعدها إلى سورية وتوفي في مستشفى حرستا العسكري قرب

العاصمة دمشق في نيسان ١٩٧٢ عن عمر ناهز السابعة والستين. خلال فترة حكمه أُلغيت جميع الأحزاب السياسية واعتُقل عدد من السياسيين المرموقين المحسوبين على العراق، وحلّ الرئيس سلو البرلمان السوري وأصدر دستوراً مؤقتاً يعطي بموجبه صلاحيات واسعة للرئاسة على حساب السلطتين التنفيذية والتشريعية. وعلى الرغم من عداوتهما الشديدة للتيار الهاشمي، فتح الرجلان علاقة جيدة مع الأردن بعد مقتل الملك المؤسس عبد الله بن الحسين في القدس عام ١٩٥١، وقاما بزيارة عمان لتهنئة نجله الملك طلال عند توليه العرش، معتبرين أن العاهل الشاب لا يتحمل أوزار والده في هزيمة الجيوش العربية خلال حرب فلسطين.

بقي فوزي سلو الحلقة الأضعف في هذا الثنائي طوال حياته، وسقط من معظم كتب التاريخ عكس الرئيس أديب الشيشكلي (١٩١٠-١٩٦٤) الذي كانت حياته مليئة بالمغامرات السياسية، وكان علامة فارقة في تاريخ سورية المعاصر. ولد في مدينة حماه على ضفاف نهر العاصي ودرس في الكلية الحربية ثم انتسب أيام الشباب إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي. التحق الشيشكلي بجيش الشرق الفرنسي وانشق عنه في ربيع عام ١٩٤٥، عندما قصف الفرنسيون العاصمة السورية خلال المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية. التحق بالجيش الوطني وكان من مؤسسيه، ثم شارك في معارك فلسطين أولاً متطوعاً في جيش الإنقاذ مع القائد فوزي القاوقجي ثم جندياً نظامياً في الجيش السوري. تراجع السوريون في المعركة بالرغم من بسالتهم، وضياع فلسطين شكل صدمة قوية عند الشيشكلي وجيله من الضباط السوريين، فوجهوا سهامهم إلى رئيس الجمهورية شكري القوتلي وفريقه، متهمين الطبقة المدنية الحاكمة بشراء سلاح قديم

ويعدم إعطاء الضباط حقهم في إدارة المعارك. شارك الشيشكلي بانقلاب حسني الزعيم على القوتلي وبكل الانقلابات المتلاحقة حتى وصل إلى سدة الحكم عبر صديقه القديم فوزي سلو في صيف عام ١٩٥٣. وضع دستوراً جديداً للبلاد وأسس لحزب سياسي جديد يدعى «حركة التحرير العربي». تضافرت الجهود العسكرية والسياسية ضده واندلع عصيان عسكري في الشمال السوري والجنوب، بقيادة سلطان باشا الأطرش من جهة والرئيس الأسبق هاشم الأتاسي من جهة أخرى، فردّ الشيشكلي باعتقال أبناء الرجلين ويضرب جبل الدروز، ولكن عند إدراكه أن البلاد سوف تسقط في دوامة عنف قد لا تنتهي، استقال من منصبه بعد سبعة أشهر فقط من توليه الرئاسة الأولى، تجنباً لسفك المزيد من الدماء، وغادر إلى لبنان ثم إلى السعودية وأخيراً إلى أميركا اللاتينية، حيث سقط قتيلاً على يد أحد أبناء الطائفة الدرزية في أيلول عام ١٩٦٤. لم تستطع الماسونية الدمشقية أن تحميه من الانقلاب والموت، ولا أن تحمي صديقه فوزي سلو من النسيان.

إضافة إلى مسيرتهم العسكرية المشتركة في حرب فلسطين وفي الانقلابات العسكرية المتتالية، كان الرئيسان سلو والشيشكلي منتسبين إلى «محفل سورية الأكبر» برئاسة الأمير سعيد الجزائري، زوج شقيقة الرئيس سلو. المؤرخون الأجانب للماسونية يقولون بحسم إن العشيرة السرية تُحرم العمل أو التحدث بالسياسة والدين داخل المحافل وتمنع أعضاءها من الوقوف في وجه الدولة أو في التآمر على سلامتها واستقرارها، وهذا الكلام يتناقض كلياً مع حقبة الانقلابات في سورية. لا نملك جواباً إن كان لابتعاد الشيشكلي عن الماسونية الدمشقية خلال فترة حكمه دور في سقوطه المدوي بهذ الشكل، والأغلب أن لا رابط بينهما، ولكن المعروف أنه في عام ١٩٥١

طبع «محفل سورية الأكبر» كراساً عن نشاطه السنوي وأعضائه، واصفاً الشيشكلي فيه بأنه «حامي الماسونية السورية». ولكن الشيشكلي نفسه لم يفعل أي شيء للدفاع عن أبناء العشيرة عند اتهامها بالعمالة والخيانة، خوفاً على سمعته السياسية ورصيده الواسع في الشارع السوري والعربي، وتراجعت الماسونية في عهده تراجعاً رهيباً، وتوجه أعضاؤها إلى نوادي الروتاري، التي كانت أكثر قبولاً لدى المجتمع السوري بعد سنة ١٩٤٩.



رئيس الدولة الزعيم فوزي سلو عام ١٩٥٢ .



الرئيس الشرفي الاعظم لمجلس الشيوخ
العارفين لدرجة ٣٠ش.٠٠.دمشق

الاخ [العقيد اديب الشيشكلي]

انتسب الى الماسونية عام ٩٤٠ في محفل
الاخلاص ونال د .٠ ١٨ في مقام الابريزدج
٣ش .٠٠. دمشق ثم في عام ٩٥٠ رقي لدرجة
٣٠ من قبل المجلس السامي السوري العربي
يحمل البراءات والشهادات والاوسمة الممتازة

العنوان : دمشق رئيس اركان الجيش السوري

مسيرة الرئيس أديب الشيشكلي كما وردت في المطبوعات الرسمية الدورية للمحفل الأكبر السوري العربي عام ١٩٥١.

روتاري دمشق

لم تكن نوادي الروتاري جديدة على دمشق، فقد بدأت بالعمل منذ الثلاثينيات عندما أدخلها كلار مارتين، مدير شركة شل للنفط إلى المجتمع السوري. تأسست نوادي الروتاري العالمية في الولايات المتحدة مع بدايات القرن العشرين كجمعية علمانية وشبكة علاقات «لمن يرغب في نشر الإنسانية حول العالم». كانت أهدافها على الورق تشبه إلى حد بعيد أهداف الماسونية وأفكارها في الإخاء والعدالة والعمل الخيري. وبدلاً من المحافل، كان أعضاء نوادي الروتاري يجتمعون على مآدب إفطار وعشاء في الفنادق الفخمة وفي البيوت الخاصة، حيث يناقشون أعمالهم ويقومون بدعم التواصل والتشبيك بين ذوي النفوذ في المجتمعات. في نيسان من عام ١٩٣٨ قام كلار مارتين بدعوة رئيس نادي روتاري الدولي موريس دي بوري إلى

دمشق للتعرف إلى أعيانها، وكان معظمهم من الماسون بطبيعة الحال، فارس الخوري وجميل مردم بك ولطفي الحفار ورضا سعيد وعبد الرحمن الشهبندر وعطا الأيوبي. قُدم لجميل مردم بك، رئيس الوزراء في حينها، طلب لتأسيس نادي روتاري في دمشق، وقبل مردم بك الطلب على الفور، مشترطاً أن تكون كافة المراسلات والاجتماعات باللغة العربية ليصبح النادي بذلك أول نادي روتاري بالعالم يقر باللغة العربية لغةً رسمية له، أسوة بالماسونية الدمشقية المعربة. تأسس النادي الدمشقي يوم ٦ أيلول في عام ١٩٣٨ وانضم إليه على الفور كافة الماسونيين الدمشقيين وانتخبوا الطبيب أنسطاس شاهين من جامعة دمشق رئيساً له، يعاونه السياسي الكبير نعيم أنطاكي ورئيس نقابة المحامين سامي الميداني الذي أصبح لاحقاً رئيساً للجامعة السورية. نعيم أنطاكي بدوره كان من مؤسسي الكتلة الوطنية في سورية وشغل منصب أول وزير للخارجية بعد الاستقلال، وكان من مؤسسي منظمة الأمم المتحدة مع رفيقه الماسوني فارس الخوري.

بعد خمس سنوات على تأسيسها افتتح أول فرع لنادي الروتاري في حلب، وتبعه افتتاح مكتب في اللاذقية في حزيران من عام ١٩٥٤. أما مدينة حمص التي احتضنت الماسونية يوماً، فقد افتتح أول فرع للروتاري فيها في شهر كانون الأول من عام ١٩٥٩ أيام الوحدة مع مصر. في عام ١٩٤٤ تعاونت المحافل الماسونية ونوادي الروتاري على محاربة وباء الملاريا الذي اجتاح البلاد، وبعدها بعام أقاموا حملة وطنية كبيرة لمحاربة الأمية عند الكبار من عمال وفلاحين، ونساء الأرياف، وحراس الليل في بساتين الغوطة. قام أعضاء كلتا الجمعيتين بإعطاء دروس مجانية لجميع هؤلاء لمدة ساعتين في اليوم، وقامت الحكومة السورية بردّ الجميل بإصدار أربعة طوابع بريدية

تكريماً لنادي الروتاري عام ١٩٥٥ في اليوبيل الذهبي على تأسيسه عالمياً، وكان هذا بفضل مدير إدارة البرق والبريد، الماسوني إبراهيم كنعان عضو محفل سورية ولبنان. لم يصدر أي طابع مماثل للماسون، وكلتا الجمعيتين أغلقت بمرسوم واحد صادر عن الرئيس محمد أمين الحافظ في شهر آب من عام ١٩٦٥. جمّد أعضاء الروتاري نشاطهم طوال أربع سنوات، وحاولوا العودة إلى العمل في عهد الرئيس البعثي الدكتور نور الدين الأتاسي، ولكن عند رفض الاخير لطلبهم، حلّوا نواديهم نهائياً في كانون الثاني من عام ١٩٦٩. وكما الماسون، عمدوا إلى إتلاف جميع أوراقهم طوعاً قبل مصادرتها.

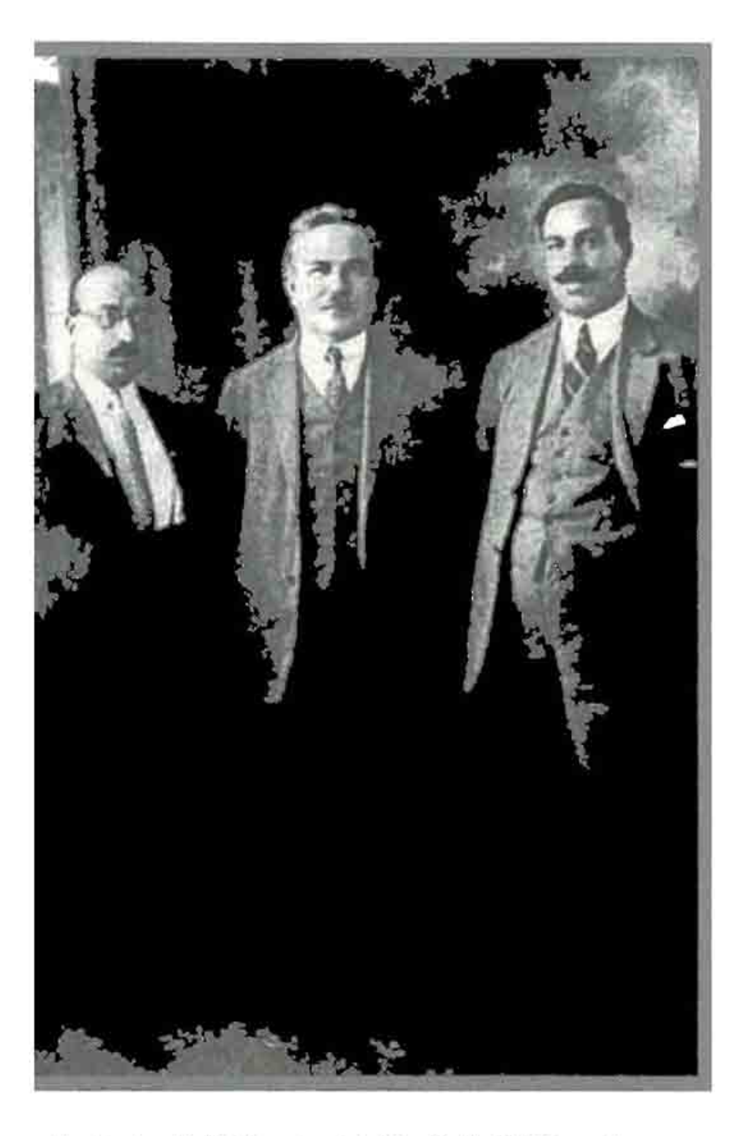

الماسونية والسياسة السورية

في قوانين الماسونية، يمنع منعاً باتاً مناقشة الأمور السياسية والدينية داخل اجتماع منعقد في المحفل، ولكن معظم سياسيي سورية في النصف الأول من القرن العشرين كانوا أعضاءً في الماسونية، بعضهم كان محسوباً على فرنسا والآخر على الوطنيين. خمسة من أصل ستة وزراء عام ١٩١٨ على سبيل المثال كانوا ماسونيين، وكذلك جميع أعضاء حكومة الرئيس صبحي بركات عام ١٩٢٤، بمن فيهم الرئيس نفسه. بعدها بعام أصبح الماسوني الكبير أحمد نامي بك، المعروف بلقبه التركي «الداماد» (و يعني صهر السلطان) رئيساً للدولة السورية خلال الثورة السورية الكبرى. «الداماد» كان شركسياً من وجهاء مدينة بيروت، يبلغ الرابعة والأربعين من العمر، وقد درس في أهم مدارس باريس وإسطنبول

وانتسب إلى الماسونية عبر محفل لبنان التابع للشرق الأعظم الفرنسي يوم ٧ نيسان ١٩٠٦ [١]. كان جده مساعداً للقائد المصري إبراهيم باشا عند مجيء جيوشه إلى دمشق، أحب المدينة وأهلها وبقي في الشرق الأوسط بعد انسحاب الجيش المصري من سورية عام ١٨٤٠. أما والد الداماد فخري بك، فقد أصبح مديراً لبلدية بيروت، ثم حاكماً لنابلس في عام ١٨٥٥. عمل الداماد، زوج الأميرة ياسمين كريمة السلطان عبد الحميد الثاني، فور تسلمه الحكم بشكل وثيق مع أعيان الماسونية، وعيّن سبعة منهم في حكومته، فارس الخوري وزيراً للمعارف (محفل نور دمشق) وحسني البرازي وزيراً للداخلية (محفل العاصي) ولطفي الحفار وزيراً للتجارة (محفل سورية)، رشيد المدرس وزيراً للأشغال العامة (محفل النهضة)، ويوسف الحكيم وزيراً للعدل (محفل سورية ولبنان)، وحمدي نصر وزيراً للمال (محفل قاسيون) وواثق مؤيد العظم وزيراً للزراعة (محفل النهضة)[٢]. عند اعتقال ثلاثة من الوزراء من قبل سلطة الانتداب عين الداماد رؤوف الأيوبي وزيراً للداخلية خلفاً لحسني البرازي، وكان عضواً بارزاً في «محفل سورية»[٣]. وقد طالب الداماد الفرنسيين بتوقيع معاهدة مع سورية لتحديد الفترة الزمنية للانتداب وبانضمام بلاده إلى عصبة الأمم، ولكنهم رفضوا الاستجابه له. حكم الداماد سورية مع رفاقه الماسونيين طوال فترة الثورة ما بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧، ثم سافر إلى باريس ليُدرس مادة العلوم السياسية في جامعة السوربون العريقة. وكان خلال فترة عمله في سورية لا يخجل من ارتداء وزرته الماسونية في بعض صوره الرسمية، وحاول استخدام الماسونية لتنصيب نفسه ملكاً على سورية، ولكنه فشل مرة أخرى.



رئيس الدولة الداماد أحمد نامي بك بلباسه الماسوني الرسمي عام ١٩٢٦ .



الماسون الثلاثة في حكومة الداماد، وزير الداخلية حسني البرازي (محفل العاصي)، وزير المعارف فارس الخوري (محفل نور دمشق)، وزير التجارة لطفي الحفار (محفل سورية).



رؤوف الأيوبي، الذي خلف حسني البرازي في وزارة الداخلية في حكومة الداماد. بلباسه الماسوني الرسمي التابع لمحفل سورية.

في صيف عام ١٩٢٥ قدم خمسة أخوة من الماسون طلباً للحكومة السورية لتأسيس أول حزب سياسي في عهد الانتداب، يدعى حزب الشعب. طالب الحزب الجديد باستقلال سورية الفوري وغير المشروط، وبتأسيس جيش وطني وملكية دستورية توحد الاقطار العربية تحت العرش الهاشمي. كان مقر الحزب في دمشق وأسسه كل من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري ولطفي الحفار وجميل مردم بك وحسن الحكيم، جميعهم باستثناء الشهبندر أصبحوا رؤساء حكومات في وقت لاحق، وجميعهم كانوا أعضاء بارزين في الماسونية الدمشقية. لم يقتصر أعضاء الحزب الجديد على الأخوة الماسون، بل فتح أبوابه أمام كافة حاملي الشهادات الجامعية، من عمر الواحد والعشرين وما فوق، دون الدخول بدين المنتسب أو مذهبه أو عرقه. واشتمل حزب الشعب في أفكاره على القليل من الاشتراكية، قبل سنوات طويلة من نشوء حزبي البعث والاشتراكيين العرب. حتى لو كف الشهبندر عن نشاطه الماسوني الرسمي بعد عام ١٩١٤، لا يوجد شيء في العشيرة الحرة اسمه «ماسوني سابق»، فالماسوني يبقى ماسونياً ما دام ملتزماً تعاليم الأخوة ومبادئها، لا يفشي أسرارها ويعمل على تحقيق أهدافها، إما بالسرّ أو بالعلن. بعد خروج الشهبندر من السجن عام ١٩٢٤ دعي لحضور إحدى جلسات «محفل سورية» بصفة ضيف شرف بالرغم من غيابه عن أي نشاط ماسوني منذ عام ١٩١٤، وألقى خطاباً قال فيه: «قد أكون نسيت بعض مراسم المحافل ولكني لم أنسَ شيئاً واحداً أبداً، هو المبادئ التي تعلمتها من الماسونية»[٤]. مع ذلك لم يدم حزبه طويلاً، وقامت حكومة الانتداب بحظره بأمر من المندوب السامي موريس ساراي، الماسوني أيضاً، بعد اندلاع شرارة الثورة السورية الكبرى.

الهوامش

١ تيري ميليت، المريول والطربوش، ٤٣.

٢ حمادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، ١٥٥.

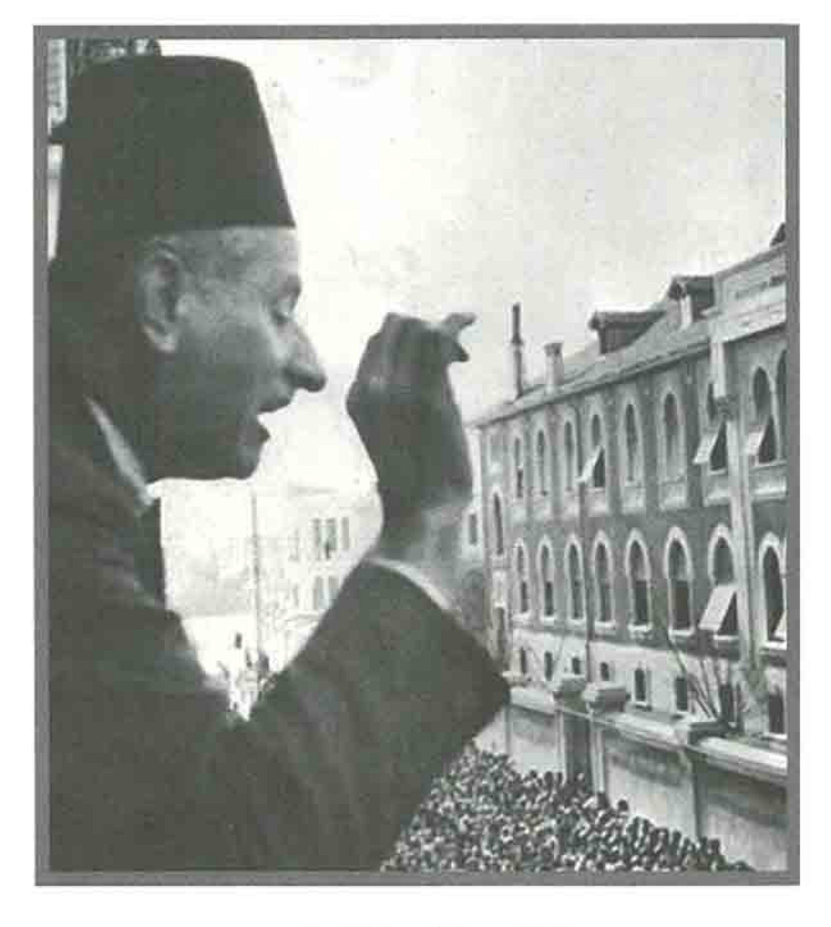
٣ تيري ميليت، المريول والطربوش، ١٥٤.

٤ مجلة «كل جديد» (عدد آب ١٩٤٨).

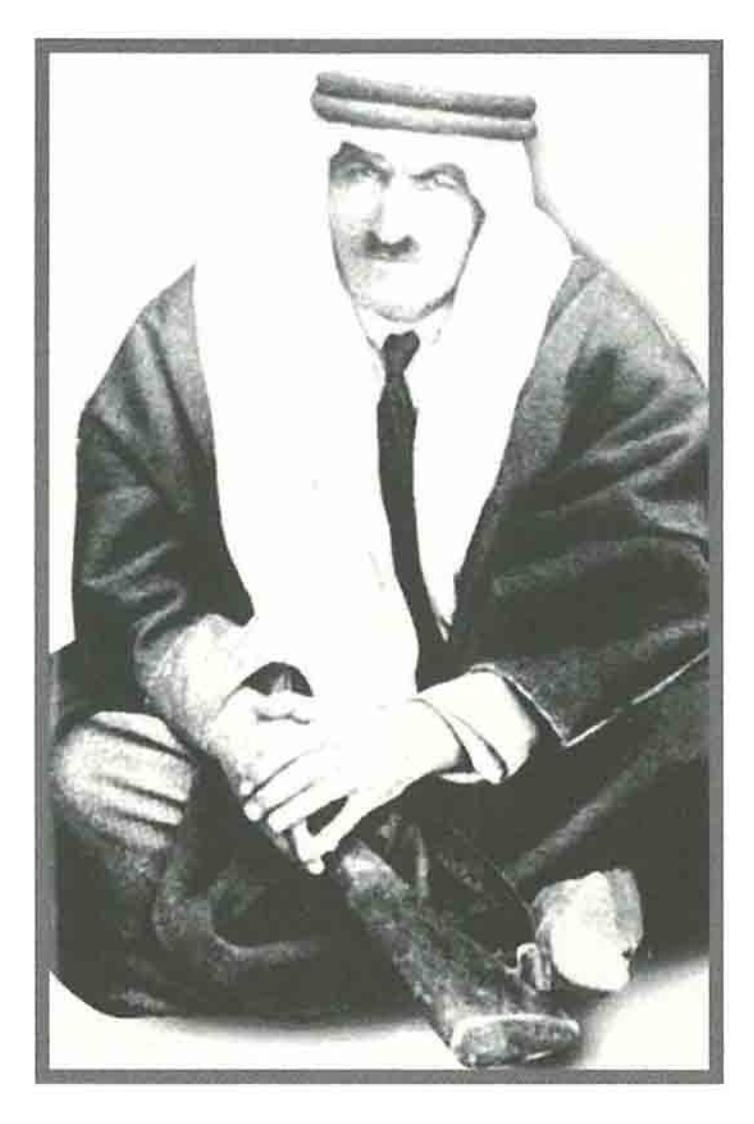
بين الشهبندر وجميل مردم بك

كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر من ألمع الشخصيات الوطنية في تاريخ سورية الحديث دون أي منازع، وكان من أكثر السياسيين شهرة وخطابة وإخلاصاً، وكان أيضاً من أفضل الماسونيين الدمشقيين بين رفاق جيله. ولد في دمشق عام ١٨٨٩ ودرس الطب في الجامعة الأميركية في بيروت، على الرغم من توسط الحالة المادية لوالديه، وعاد ليفتتح عيادته الخاصة ويعمل طبيباً للوالي العثماني جمال باشا. في هذه الأثناء التحق أيضاً بالثورة العربية الكبرى بقيادة أمير مكة الشريف حسين بن علي وأصبح من أبرز منظريها، من خلال علمه المتنوع ومعرفته الجيدة بالسياسة الدولية والتاريخ الغربي والإسلامي. تحمس الشهبندر لأفكار الثورة الفرنسية، التي تنادي بالعلمانية والحرية والعدل، وبدأ بترجمة الكثير من الكتب عن تلك المواضيع إلى اللغة العربية، بعضها اعتبر مسيئاً للرسول محمد بسبب علمانيته الصارخة، ما جعله

مصيدة سهلة لرجال الدين وأئمة الجوامع. بعد خروج العثمانيين من سورية عمل الشهبندر مع زملائه الأطباء على ترجمة الكتب الطبية العلمية من اللغة التركية إلى العربية، وأصبح من مؤسسي معهد الطب العربي بدمشق الذي أصبح عام ١٩٢٣ يعرف بالجامعة السورية. في عام ١٩٢٠ أصبح وزيراً للخارجية، وكان من واضعي الدستور السوري في عهد الملك فيصل الأول الذي لم يرَ النور بسبب الاحتلال الفرنسي لمدينة دمشق في صيف ١٩٢٠.



الدكتور عبد الرحمن الشهبندر.



الدكتور الشهبندر خلال مشاركته في الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥.



دولة الرئيس جميل مردم بك.



جميل مردم بك وسعد الله الجابري يدخلان قصر عابدين في مصر عام ١٩٤٤.

Name	Occupation										
Joseph A. Abadie	[illegible]	[illegible]	5	4	05	30	4	08		"	
Gabriel D. Jarazi	"	19		"		21	4	08		"	
Gjabriel M. Kandalaft	"	33	13	3	05	7					
Saadeddine Makawi	Policeman	46	1	5	08	19	7	08	4	12	08
Amine Hassan Abdalla	Proprietor	43	6	12	07	1	5	08	18	12	08
Mansour K. Haddad	Merchant	28	1	5	08	30	7	08	9	1	09
Nagib F. Daghir	Doctor	27	4	12	07	30	3	08		"	
Georges Midani	Clerk	24	1	11	07	19	10	08	1	2	09
Nametalla Cabet	"	23	29	5	08	30	10	08		"	
Shukr Habeeb Abou-Swan	Merchant	23	11	3	08	"				"	
Ibrahim F. Abi-Halkah	Proprietor	42	29	5	08	19	10	08		"	
Nicolas Brieli	Merchant	33	1	5	08	"				"	
F. G. Chami	Public Notary	31	31	5	07	1	7	07	5	3	09
Habib Cueni	Clerk	38	1	12	07	1	5	08		"	
Nicolas G. Grad	Merchant	55	22	6	06	19	5	08	23	3	09
Hanan Katalan	"	24	6	11	08	21	11	08	5	3	09
George E. Atiyeh	"	25	17	11	08	3	3	08	12	3	09
Abdur Rahman Shahbandar	Doctor	29	6	11	08	13	11	08	26	3	09

سجل الأعضاء في محفل السلام في بيروت. يظهر الدكتور عبد الرحمن الشهبندر في السطر الأخير على أنه قبل في الماسونية يوم ٦ تشرين الثاني عام ١٩٠٨، أي بعد ثلاثة أشهر من انقلاب جمعية الاتحاد والترقي على السلطان عبد الحميد في اسطنبول.

المصدر: أرشيف محفل السلام في بيروت

دخل الدكتور الشهبندر الماسونية عبر محفل السلام البيروتي التابع لمحفل إسكتلندا الأكبر في تشرين الثاني ١٩٠٨، وهو يعمل مدرساً في الجامعة الأميركية، ووصل إلى رتبة «أستاذ أعظم» بسرعة كبيرة خلال أربعة أشهر فقط، مجتازاً الدرجتين الأولى والثانية، قبل انتقاله إلى محفل «نور دمشق» في العاصمة السورية[1]. لشدة تأثرهم به، دخل عدد من مناصريه العشيرة السرية قدوة بالشهبندر، إما تحت إشرافه أو بسببه، مثل الطبيب مدني الخيمي أو الصحفي نصوح بابيل، صاحب جريدة «الأيام» الدمشقية المعروفة الذي وجد اسمه في سجلات محفل قاسيون التابع للمحفل الأكبر الفرنسي[2]. استفاد الشهبندر من شبكة علاقاته الماسونية الواسعة ووضعها في خدمة مشروعه الوطني. وفي مؤتمر السلام في باريس عام ١٩١٩ استطاع الشهبندر أن يجلس وجهاً لوجه مع الرئيس الأميركي وودرو ويلسون وأن يسمع منه رأيه في حق الشعوب بتقرير مصيرها، كما نصت عليه نقاطه الأربع عشرة المعلنة خلال الحرب كخريطة طريق للعالم الجديد. قام الشهبندر بترجمة أفكار الرئيس ويلسون إلى اللغة العربية وتوزيعها لدى الصحف الدمشقية لتعريف الناس البعيدين كل البعد عن الولايات المتحدة يومها، بويلسون وأميركا، قائلاً إن العرب وجدوا صديقاً جديداً لهم في الغرب متمثلاً بشخص الرئيس الأميركي، وإنه ينبغي لهم أن يستفيدوا منه ما دام موجوداً في البيت الأبيض. لعب الشهبندر دوراً مهماً، في إقناع الرئيس الأميركي بضرورة إرسال لجنة تقصي حقائق إلى سورية لتقرر إن كان الشعب السوري حقاً يريد أي وصاية أو حماية من دولة أجنبية، فرنسية كانت أو بريطانية، بعد أربعة قرون من الحكم التركي لهم. في البداية، كان من المقرر أن تكون اللجنة الدولية مكونة من حلفاء الولايات المتحدة في

الحرب العالمية، ولكن جرى تقزيمها إلى لجنة أميركية فقط، تحمل اسم خبيريها، هنري كينغ وشارل كراين لتعرف في التاريخ السوري الحديث بلجنة كينغ كراين. وصل الدبلوماسيان الأميركيان إلى دمشق عام ١٩١٩. كان السيد كينغ أستاذاً في اللاهوت في جامعة أوبيرلين، وصديقه كراين كان رجل أعمال ثرياً أسهم بتمويل حملة الرئيس ويلسون الانتخابية عام ١٩١٢، وبعد ثماني سنوات قام بدعم أولى محاولات التنقيب عن النفط في الحجاز، ليصبح سفيراً لبلاده في الصين عام ١٩٢١. أمضت اللجنة الاميركية ستة أسابيع في سورية زارت خلالها ما بين ٣٦ بلدة ومدينة، وتسلمت طلبات من ١٥٢٠ قرية. وقد رافق أعضاء لجنة كينغ كراين في جولاتهم الثلاثي الماسوني عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وحسن الحكيم، وجالوا بهم على الكنائس والكنيس اليهودي والجوامع وعرّفوهم إلى تجار وشيوخ وطلاب وعائلات الشهداء. كان موضوع المرأة السورية يشكل حافزاً رئيسياً عند الشهبندر، فاصطحب كلاً من الكاتبة ماري عجمي والناشطة نازك العابد للكلام أمام الضيوف الأميركيين. كان الشهبندر سبّاقاً ريادياً في كل شيء، يرغب في إعطاء المرأة السورية حقوقاً لا تقتصر فقط على حقوقها السياسية، بل تمتد لتشمل حق الدخول في المحافل الماسونية أيضاً، علماً أنه لم يكن يوجد أي محفل مفتوح للنساء في المنطقة كلها.

من خلال الشهبندر ورفاقه استمعت لجنة كينغ كراين إلى مطالب السوريين الرافضين لأي وصاية فرنسية على بلادهم والمطالبين باستقلالهم التام وباحترام مبدأ الرئيس ويلسون في حق الشعوب بتقرير المصير. لكن لأسباب عدة تأخر تقرير اللجنة ولم يرَ النور حتى عام ١٩٢٢، بعد عامين من احتلال دمشق، وفُرض الانتداب الفرنسي على الشعب السوري بقوة

السلاح ودام ٢٦ عاماً كاملة، ولم تنفع ماسونية الشهبندر في إلغاء الانتداب أو حتى في تأجيله أو تعديل شروطه. بالرغم من نشاطه الماسوني نُفي الشهبندر إلى مصر وبقي هناك يعمل في أحد مشافي الإسكندرية حتى سمح له الفرنسيون بالعودة عام ١٩٢٢. فور وصول الدكتور الشهبندر عاد شارل كراين إلى دمشق، بصفة شخصية هذه المرة، لتقويم أوضاع البلاد السورية بعد عامين من بدء الاحتلال الفرنسي. مرة أخرى عمل الشهبندر دليلاً ومترجماً له، ما أدى إلى اعتقاله مرة ثانية، وزُجّ في سجن القلعة بتهمة تقاضي مبلغ ألفي دولار من الزائر الأميركي، قال الشهبندر إنها قيمة منحة لتدريس فتاتين سوريتين على حساب شارل كراين في الولايات المتحدة. توكل صديقه فارس الخوري للدفاع عنه وعن حسن الحكيم، الذي اعتقل أيضاً بنفس الجرم، ولكن المحكمة الفرنسية حكمت على الشهبندر بالسجن لمدة عشرين سنة بينما حكمت على حسن الحكيم بعشر سنوات. غَضِبَ الشارع السوري فاندلعت التظاهرات المطالبة بإطلاق سراح الدكتور الشهبندر وصديقه حسن الحكيم، فأصدرت فرنسا تحت ضغط الشارع عفواً عنهما بعد قضائهما ١٨ شهراً في السجن، وقامت السلطات الفرنسية بنفي الاثنين إلى خارج البلاد. عاد الشهبندر إلى مصر، بينما ذهب الحكيم إلى فلسطين للعمل مع المصرفي الكبير عبد المجيد شومان في تأسيس البنك العربي. قبل سفره إلى مصر توجه الدكتور الشهبندر إلى الولايات المتحدة وبريطانيا في زيارة استمرت تسعة أشهر، زار خلالها قصر ويستمينيستر والكونغرس الأميركي لشرح القضية السورية أمام صناع القرار في واشنطن ولندن، وأسهمت الماسونية بفتح عدة أبواب له في الغرب لا أكثر، منها باب المكتب البيضاوي في البيت الأبيض للقاء الرئيس الأميركي كالفن كولدج.

كان من رفاق الشهبندر وأشد تلامذته حنكة وذكاء ومكراً، الوجيه الدمشقي والسياسي جميل مردم بك، الذي كان أيضاً من مؤسسي حزب الشعب في صيف عام ١٩٢٥. درس مردم بك العلوم السياسية في باريس ودخل الماسونية الفرنسية عبر محفل الشرق الفرنسي خلال أيام الدراسة الجامعية. عمل يومها مع أربعة زملاء من الطلاب العرب على تأسيس جمعية سرية مناهضة للدولة العثمانية، عرفت بالجمعية العربية الفتاة، مقرها باريس، وكان هذا في تشرين الثاني عام ١٩٠٩. وقد انتسب عدد وافر من أعيان البلاد سراً إلى جمعية الفتاة وقامت الدولة العثمانية باعتقالهم جميعاً وبإعدام رموزهم شنقاً في بيروت ودمشق ما بين آب ١٩١٥ وأيار ١٩١٦. حُكم على جميل مردم بك بالإعدام ثلاث مرات في حياته: الأولى على أيدي العثمانيين عام ١٩١١، والثانية من قبل الفرنسيين بعد احتلالهم لسورية عام ١٩٢٠، والمرة الأخيرة عند اندلاع نيران الثورة السورية عام ١٩٢٥. لا نعرف إن كانت الماسونية ساعدت مردم بك وأنقذته من حبل المشنقة في المرات الثلاث، ولكنه عاش طويلاً حتى وافته المنية مرضاً في مصر عام ١٩٦٠.

كان «جميل بك» كما كان يناديه الدمشقيون ابن إحدى أعرق عائلات الشام في العهد العثماني، وأبرزها مُلكاً ومكانة بين الناس. عمل مساعداً للدكتور الشهبندر منذ عام ١٩١٩ وسافر معه إلى مؤتمر السلم في باريس، وعمل مترجماً بين الوفدين السوري والفرنسي. بعد الاحتلال الفرنسي شارك الشهبندر في تأسيس تنظيم سياسي سري اسمه «اليد الحديدية» يعمل على مدّ ثوار الشمال والساحل وتلكلخ بالسلاح والمال. وفي عام ١٩٢٥ قام جميل مرد بك بشراء ونقل كمية من الأسلحة لثوار الغوطة، بالتنسيق مع الشهبندر العقل السياسي لتلك الثورة. وبعد إخمادها بالقوة، هرب

الشهبندر إلى مصر وذهب مردم بك إلى مدينة يافا الفلسطينية، حيث اعتقلته السلطات البريطانية وأبعدته إلى سورية. حُكم عليه بالإعدام ولكن الحكم لم ينفذ وقضى مردم بك قرابة العام في سجن انفرادي في جزيرة أرواد قبل إطلاق صراحه بموجب أول عفو عام أصدرته حكومة الانتداب عام ١٩٢٨. عاد بعدها إلى دمشق وانضم إلى صفوف الكتلة الوطنية التي أسّسها قبل أشهر في بيروت الزعيم الوطني هاشم الأتاسي والتي أصبحت أكبر تجمع عرفه وطنيو سورية لمحاربة الاستعمار الاجنبي. رشّح «جميل بك» نفسه نائباً عن دمشق في قوائم الكتلة وفاز بمقعد بالمجلس النيابي في الأعوام ١٩٣٢ و١٩٣٦ و١٩٤٣. اعتبره الفرنسيين الأكثر فراسة ودهاءً بين رفاقه ولقبه البعض بـ «ثعلب دمشق».

الإضراب الستيني

في عام ١٩٣٦ لعب جميل مردم بك دوراً أساسياً في إطلاق إضراب عام دام ٦٠ يوماً في كافة المدن السورية، احتجاجاً على اعتقال نائب دمشق فخري البارودي واقتحام منزل المرحوم إبراهيم هنانو في حلب، «زعيم» الكتلة الوطنية وأحد مؤسسيها. كان هنانو قد توفي في تشرين الثاني من عام ١٩٣٥ بعد قيادته لثورة مسلحة ضد الفرنسيين، وقد اعتقله الفرنسيون وعانى الأمرّين في سجونهم، وأصيب بعدة أمراض كان من بينها داء السل الذي قضى عليه وهو في الحادية والستين من العمر. كانت وفاته خسارة كبيرة لسورية وللكتلة الوطنية بالتحديد. شارك في تشييعه قرابة ١٥٠ ألف شخص، وصاح شباب حلب وريفها: «مات أبو الجهاد، فليحيَ الجهاد!»[٣]. اعتقلت سلطة الانتداب ١٦٠ من المشّيعين وأطلقت النار على الشباب

العزل، فأضربت دمشق تضامناً مع حلب، وترأس رجالات الكتلة الوطنية تظاهرة شعبية خرجت من الجامع الأموي، فردّت فرنسا بإغلاق مكاتب الكتلة في دمشق بحي القنوات، وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٣٦ أمرت باعتقال الزعيم فخري البارودي، بتهمة تحريض الأهالي في دمشق وحلب[٤].

في ٢١ كانون الثاني خطب جميل مردم بك في الجامع الأموي أمام طلاب ثانوية التجهيز ومكتب عنبر والجامعة السورية، مطالباً بإنهاء فوري للانتداب وخروج الجيش الفرنسي من المدن. وفور انتهائه من الكلام ألقت الحكومة الفرنسية القبض عليه وقامت بنفيه إلى قرية أعزاز، على مسافة ثلاثين كيلومتراً شمال غرب مدينة حلب، كذلك قامت السلطات بوضع زميله في الكتلة الوطنية وأخوه في الماسونية لطفي الحفار تحت الإقامة الجبرية، وطردت أيضاً زميلهما فارس الخوري من عمادة كلية الحقوق في الجامعة السورية وفصلت كل الطلاب المحسوبين على الكتلة. ردّت الهيئة التدريسية بتعطيل الدروس وأضرب جميع طلاب سورية احتجاجاً. وفي حمص وسط البلاد خرج الرئيس هاشم الأتاسي في مسيرة شعبية نصرة لرفاقه في دمشق وحلب، وردّت فرنسا بإطلاق النار، ما أدى إلى جرح عشرين شخصاً ومقتل ثلاثة من مؤيدي الأتاسي[٥]. من دمشق تنادى الوطنيون وطالبوا بإطلاق سراح رفاقهم وبرفع القوانين العرفية ورددوا مطلب جميل مردم بك بضرورة إنهاء الانتداب على الفور. أمر هاشم الأتاسي بإضراب عام حتى تحقيق تلك المطالب، واستجابت دمشق على الفور ومعها حلب وحمص وحماه واللاذقية ودير الزور وبيروت وطرابلس وصيدا. لم تعرف البلاد إضراباً شاملاً ومحكماً من هذا النوع في تاريخها، وحدها المخابز بقيت تعمل بأمر من الرئيس الأتاسي.

في ٤ شباط أغلقت حماه بالكامل، فعمدت السلطات الفرنسية إلى اعتقال زعيمها الدكتور توفيق الشيشكلي رئيس مكتب الكتلة في مدينة العاصي. هاجم الشباب الحمويون مجموعة من الجنود الفرنسيين، فأطلق الجنود النار عليهم وقتلوا سبعة فتيان وجرحوا أربعين[٦]. في الثامن من الشهر ذاته قُتل ثلاثة شبان آخرين في حماه، وبعد أيام وصلت الاضطرابات إلى مدينة دير الزور. أجرى وفد من غرفة تجارة دمشق زيارة للمندوب السامي الفرنسي في بيروت، وهدد أعضاء الوفد بوقف العمل الاقتصادي لو استمرت فرنسا في عدوانها[٧]. وفي محاولة لتطويق الموقف واحتوائه، عيّنت السلطات الفرنسية عطا الأيوبي رئيساً للحكومة لكونه محسوباً على الوطنيين. جاء الأيوبي إلى السرايا الكبيرة والمدينة على شفير الانهيار الكامل. في ٢٦ شباط أقنع الأيوبي الفرنسيين بإصدار عفو عن كل المعتقلين دون مذكرة توقيف، لم يشمل ذلك العفو ثمانية آلاف مواطن سوري كانوا معتقلين في السجون الفرنسية. في ١ آذار سافر الرئيس الأيوبي إلى بيروت لإجراء مباحثات مع المندوب الفرنسي استمرت على مدى يومين كاملين وأدت إلى فتح أبواب السجون كاملة وإصدار عفو عن المبعدين، منهم الشهبندر ومردم بك، بالإضافة إلى فتح مكاتب الكتلة الوطنية وعودة صحفها المعطلة إلى الطباعة والنشر، كانت تلك الخطوات بمقابل إنهاء الاضراب وبدء مفاوضات سياسية حول مستقبل سورية في العاصمة الفرنسية باريس.

التزمت الكتلة الاتفاق وأعلنت إنهاء الاضراب في يوم ٣ آذار من عام ١٩٣٦. توجه الرئيس عطا الأيوبي ومعه صديقه هاشم الأتاسي إلى سوق الحميدية ليقصّا شريطاً أخضر وُضِع عند مدخله، لتفتح المتاجر فوراً

بإشارة منه في رسالة بالغة الدلالات، إذ كانت الرسالة تقول بصراحة بأن الكتلة الوطنية وحدها القادرة على إغلاق المدينة ووحدها القادرة على فتحها أيضاً[٨].

تشكل الوفد الوطني للتفاوض مع الفرنسيين برئاسة الأتاسي وعضوية كل من جميل مردم بك وفارس الخوري من دمشق وسعد الله الجابري من حلب ورياض الصلح من بيروت، وطاقم سكرتاريا مؤلف من المحامي نعيم أنطاكي وخالد بكداش رئيس الحزب الشيوعي السوري. أربعة من الوفد كانوا من الماسون: الخوري ومردم بك والصلح وأنطاكي. وقد استمرت المفاوضات من آذار حتى أيلول من عام ١٩٣٦، وتمخض عنها اتفاق تاريخي يعطي سورية حق الاستقلال التدريجي على مدى خمس وعشرين سنة بشرط إبقاء بعض القواعد العسكرية الفرنسية في الساحل لاستخدامها في حال نشوب حرب عالمية جديدة في أوروبا. عند عودة الوفد إلى سورية رشّح أعضاؤه أنفسهم للمجلس النيابي وفازوا بأغلبية ساحقة، وانتخبوا هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية خلفاً للرئيس محمد علي العابد. بدوره طبّق الأتاسي العفو العام واستقبل الشهبندر العائد من منفاه الطويل، وعيّن جميل مردم بك رئيساً للحكومة الجديدة وفارس الخوري رئيساً لمجلس النواب، لتذهب بذلك ثاني وثالث سلطة في البلاد إلى الأخوة الماسون. استمر حكمهم حتى عام ١٩٣٩ وسقط بسبب سلخ لواء إسكندرون عن سورية ورفض البرلمان الفرنسي التصديق على اتفاقية عام ١٩٣٦.

لو كانت الماسونية فعلاً تحكم دمشق يومها لمررت الاتفاق في باريس بدلاً من عرقلته ولمنعت سلخ اللواء وقامت بحماية جميل مردم بك من

سيل الاتهامات الموجهة إليه بالضعف وعدم استطاعته حماية المصالح الوطنية العليا.

في تشرين الثاني من عام ١٩٤٤ عاد جميل مردم بك إلى الحكومة وزيراً للخارجية والاقتصاد والدفاع ونائباً لصديقه الماسوني فارس الخوري، رئيس الوزراء. سافر الأخير إلى مدينة سان فرانسيسكو الأميركية لحضور مؤتمر تأسيس الأمم المتحدة، فيما أشرف مردم بك في غيابه على آخر مراحل الجلاء ما بين ١٩٤٤-١٩٤٦، مستفيداً من إجادته الفرنسية ومعرفته الواسعة بالتاريخ والقانون الفرنسيين. كان أيضاً من الآباء المؤسسين لجامعة الدول العربية وعيّن رئيساً للحكومة للمرة الثانية بعد الجلاء خلال حرب فلسطين عام ١٩٤٨. في ذلك العام استقال جميل مردم بك من منصبه ومن الحياة السياسية كاملة، ليكون السياسي السوري الأول الذي يبتعد عن الأضواء وهو في قمة عطائه عندما لم يكن يتجاوز الرابعة والخمسين من العمر. كانت صدمة مذهلة للطبقة السياسية في دمشق، التي عملت معه منذ عام ١٩١١. «الثعلب» كان الثابت الوحيد في عالم مليء بالمتغيرات، ومن أكثر الناس قدرة على لمّ الشمل وتضميد الجراح بعد كارثة فلسطين. ربما لأنه كان ماسونياً يحسن قراءة السياسة العالمية، أدرك جميل مردم بك أن لا فائدة من البقاء في الحكم بعد عام ١٩٤٨، لأن العالم العربي سيتغير إلى غير رجعة بعد قيام إسرائيل، وستعصف به سلسلة من الانقلابات العسكرية، لا يريد أن يكون شريكاً فيها ولا مباركاً لها ولا حتى ضحية لضباطها المغامرين، التابعين إما لبريطانيا أو لأميركا أو للاتحاد السوفياتي.

العدوان الفرنسي على دمشق عام ١٩٢٥

من المحطات المفصلية في حياة الماسونية في دمشق كانت الثورة السورية الكبرى التي اندلعت من جبل الدروز صيف عام ١٩٢٥. كان قائد الثورة ويطلها سلطان باشا الأطرش، صديق الدكتور الشهبندر الحميم والمحسوب مثله على الأسرة الهاشمية في الأردن والعراق. بدأت في مدينة السويداء في حزيران ووصلت نيرانها إلى دمشق في تشرين الأول من نفس العام. فاجأت الثورة النخبة الدمشقية، وحاول البعض في البداية الابتعاد عنها لحماية مدينتهم ومصالحهم التجارية. ومع مرور الوقت والتحاق الكثيرين من الشباب الدمشقيين في صفوف الثوار، لم تستطع المدينة أن تنأى بنفسها عن الثورة طويلاً. اجتمع أربعة من قادة الماسون في دار صديقهم الوجيه الحاج عثمان الشرباتي في حيّ الصالحية وقرروا تحضير دمشق لدخول الثورة، هم عبد الرحمن الشهبندر وفارس الخوري وحسن الحكيم وجميل مردم بك. أقسموا بشرفهم إنهم لن يعرفوا طعم الراحة «قبل أن تنال سورية استقلالها من كل تدخل أجنبي»، وقد كان ذلك القرار أسوأ قرار اتخذوه في حياتهم.

عندما وصلت الجيوش الفرنسية إلى الشاطئ السوري نهاية عام ١٩١٨، بعد أسابيع على مغادرة العثمانيين، اندلعت عدة ثورات مسلحة ضدهم في الشمال والغرب والساحل السوري. لم تدخل دمشق وقتها في مواجهة عسكرية مع قوات الاحتلال بعدما شاهد أهلها مصير الجيش السوري في معركة ميسلون وكيف أن الفرنسيين سحقوا كل الثورات واحدة تلو الأخرى، وأنزلوا عقاباً شديداً بسكان المناطق الثائرة عليهم. عندما كان الساحل السوري يحترق ومعه ريف حلب الغربي، استمرت الحياة الاقتصادية

في دمشق دون توقف. وقلما أضربت المتاجر في أولى سنوات الانتداب، وعندما كان يحدث ذلك، يكون بإيعاز من بعض الشباب المتحمس الذي كان يهدد التجار بالإغلاق أو الإحراق. عندما وصل المندوب السامي هنري غورو إلى دمشق لاحتلالها عسكرياً بعد معركة ميسلون، بادر بعض الدمشقيين باستقباله وقدم له بعض الوجهاء مفاتيح المدينة ليدخلها بسلام، وكانت هناك قلة من الناس هتفت مرحبة: «عاشت فرنسا عاش غورو!». لم يفعل الدمشقيون شيئاً عندما حمل بعض شبابهم عربة غورو وأخذوه إلى قبر صلاح الدين الأيوبي في جوار الجامع الأموي حيث قيل إنه قال: «ها قد عدنا يا صلاح الدين». وعند تبريرهم لمواقفهم هذه، كان أعيان المدينة يردّون بأنهم يقومون بحمايتها من الخراب والدمار، بعدما سمعوا أن غورو سيحرق الأحياء ويغتصب النساء لو حاربه أهل الشام بالسلاح. أعيان دمشق من الماسون لم يخالفوا وجهة نظر الأهالي يومها، معتبرين أن هذا التصرف هو عين الصواب والحكمة.

في ٢٨ حزيران من عام ١٩٢١ ذهب غورو إلى القنيطرة في الجولان السوري ومعه حاكم دولة دمشق حقي العظم (محفل سورية) محاطاً بأربع دراجات عسكرية مسلحة. على مشارف القنيطرة هاجم أربعة فرسان موكبه، متنكرين بزي الدرك السوري، وفتحوا النار على الجنرال الفرنسي. كان جميع المهاجمين من المقاتلين الدروز من سهل حوران. نجا غورو بأعجوبة، ولكن مساعده برانيت سقط قتيلاً، وكانت هذه بداية شرارة الثورة السورية التي اندلعت بعد أربع سنوات كاملة. منفذ العملية أدهم خنجر من الجنوب اللبناني هرب إلى قرى جبل الدروز ولجأ إلى زعيم الجبل سلطان باشا الأطرش. تدهورت الحالة الأمنية في الجبل عند اعتقال الفرنسيين لأدهم خنجر وثار الأطرش

في وجههم حتى اندلاع الثورة رسمياً في صيف عام ١٩٢٥. على الفور أغلق الشهبندر عيادته وهرب إلى الجبل واضعاً نفسه تحت تصرف سلطان باشا. وكان قد قضى ليلة في الغوطة في مزرعة جميل مردم بك لتضليل المخابرات الفرنسية، ومن ثم ذهب إلى بلدة بلودان وبعدها سافر إلى السويداء. أعلن الأطرش ثورته من جبل الدروز وأقسم الشهبندر إنه سيدخلها إلى دمشق بالقوة. تولى الشهبندر صياغة كل البيانات العسكرية والسياسية وقام رجاله بتوزيعها على الأهالي على شكل قصاصات ورقية زرقاء حملت توقيع القائد العام سلطان باشا الأطرش. وقد طُبعت المنشورات في مطابع ابن زيدون المملوكة من رَفيق الشهبندر الماسوني الناشر وجيه بيضون، المنتسب رسمياً إلى محفل قاسيون الدمشقي[٩].

ردّ الفرنسيون باعتقال رفاق الشهبندر وبدأوا بعمليات دهم في الغوطة الشرقية، وأحرقوا البيوت والمزارع وقصفوا القرى في الليل. كان الثوار بدورهم يوزعون السلاح الواصل من الجبل ويشنون هجمات ليلية على الدوريات الفرنسية، قبل أن يقطعوا الاتصالات الهاتفية من دمشق وإليها. أرسل الشهبندر من الجبل عدة رسائل إلى زعماء العالم طالباً منهم العون والدعم للشعب السوري، وصل من هذه الرسائل واحدة إلى الحبر الأعظم في الفاتيكان، وأخرى إلى الرئيس الأميركي كالفن كولدج، طالبهم فيها بالتدخل السريع لإنقاذ الشعب السوري من ويلات الاحتلال ومصائبه.

في يوم ١٨ تشرين الأول ١٩٢٥ دخل قرابة ٤٠٠ خيّال إلى العاصمة السورية بإشارة من الدكتور الشهبندر المرابط بالغوطة، واتجهوا إلى قصر العظم

في قلب العاصمة دمشق بسوق البزورية[١٠]. مئة منهم دخلوا بسلاحهم الخفيف وبندقياتهم القديمة من حيّ القابون، على بعد ستة كيلومترات شمال شرق العاصمة، والفوج الآخر كان بقيادة حسن الخراط، أحد حراس بساتين حيّ الشاغور المحسوب على ثورة جبل الدروز[١١]. توجه الجمع كله إلى قصر العظم، مقر حكام ولاة المدينة في القرن الثامن عشر، الذي كان الفرنسيون يستخدمونه لإقامة ضباطهم الكبار منذ عام ١٩٢٠. وقع الشهبندر ضحية شائعة تقول إن المندوب السامي موريس ساراي وصل إلى دمشق وهو موجود في القصر التاريخي، وعلى رجاله اعتقال الضابط الفرنسي لمبادلة آلاف السجناء السوريين في معتقلات الاحتلال به[١٢]. لم يأتِ الجنرال ساراي إلى دمشق يومها، ولكنه أمر بإغلاق المدينة كلياً، وبدأ بقصف وحشي لأحيائها السكنية والتجارية حول قصر العظم. توسّل تجار سوق البزورية الثوار لمغادرة دمشق قبل بدء القصف، ولكن من دون جدوى، واستمر القصف مدة يومين كاملين.

كانت معظم متاجر ومستودعات الأسواق المحيطة بقصر العظم قد دمرت أو أحرقت بالكامل، إما برصاص الفرنسيين أو بقنابلهم. ولحق الدمار الأكبر بسوق البزورية وسوق مدحت باشا وبأحياء الشاغور والميدان[١٣]. كذلك انهار معظم سقف سوق الحميدية الحديدي فوق الأهالي والمتاجر ومات عدد كبير من العزل تحت الأنقاض[١٤]. الجامع الأموي لم يُخدش، ولكن قبة جامع سنان باشا الأثري في باب الجابية دُمرت مثلما دُمرت معها نوافذه القديمة. صارت شوارع دمشق، المليئة بالحياة عادة، تغصّ بالموت والزجاج المكسر، والبضائع المنهوبة والمحروقة. دُمر ١٥٠ منزلاً أثرياً في باب الجابية والشاغور وسقط ١٤١٦ مواطناً خلال العدوان الفرنسي،

كان منهم الكثير من الأطفال والنساء، وشُرد ٣٣٦ شخصاً وأحرِق ٢٢٠ متجراً، وبلغت قيمة الضرر المادي خمسين مليون فرنك فرنسي[١٥].

شكلت غرفة تجارة دمشق وفداً رفيعاً توجه على الفور إلى بيروت لمقابلة الحاكم الفرنسي، بقيادة نائب رئيسها الماسوني لطفي الحفار وصديقه الأمير سعيد الجزائري، وقد طالب أعضاء الوفد بوقف العدوان على الفور. بعد الاستماع إليهم قال الجنرال ساراي إنه سيأمر بوقف القصف إذا قبل الدمشقيون دفع مبلغ باهظ من المال للحكومة الفرنسية، عقوبة على دعمهم لثورة الشهبندر، وإن عليهم تسليم سلاحهم فوراً للجيش الفرنسي خلال أربعة أيام. رُفض العرض من قبل لطفي الحفار وسعيد الجزائري بالطبع، وعاد كلاهما إلى دمشق خالبي الوفاض، وتوجه الأمير سعيد إلى حيّ باب توما المسيحي، بعد انتشار شائعة تقول إن الفرنسيين ينوون ذبح أهله وتوجيه اللوم إلى الثوار المسلمين لإشعال فتنة طائفية. كان الأمير سعيد يحاول استعادة أمجاد جده الأمير عبد القادر الجزائري، الذي حارب الفرنسيين في بلاده وحمى مسيحيي دمشق من المذابح الجماعية خلال اضطرابات صيف ١٨٦٠. يومها قام الأمير عبد القادر بإيواء ١٦ ألف مواطن مسيحي في قصره بزقاق النقيب خلف الجامع الأموي بحيّ العمارة، وفي عام ١٩٢٥ لجأ ثلاثة آلاف مواطن مسيحي آخر إلى نفس الدار بعد ٦٥ سنة على لجوء أجدادهم إليها. طمأنهم الأمير سعيد إلى أنهم بأمان تماماً كما كان أجدادهم في أيام جده.

كان للأمير سعيد أيادٍ بيضاء على الحركة الوطنية السورية منذ عام ١٩١٨. بعد خروج العثمانيين، هبّ إلى نصرة دمشق وشكّل أول حكومة وطنية

بهدف حماية المدينة وإعادة الأمن والأمان والخدمات إلى شوارعها، بانتظار دخول الجيوش العربية والبريطانية. في تشرين الأول من عام ١٩٣١ قاد الأمير سعيد تظاهرة كبيرة عمّت شوارع دمشق في الذكرى الأربعين لاستشهاد المجاهد الليبي عمر المختار على يد الجيش الإيطالي، وقبلها بأشهر تزعم إضراباً عاماً بهدف مقاطعة شركة الكهرباء والتراموای المملوكتين من قبل شركة بلجيكية بسبب زيادة تعرفة ركوب المواصلات العامة في دمشق. أمر الأمير سعيد شباب دمشق بعدم استخدام الكهرباء والعودة إلى مصابيح الكاز طوال صيف عام ١٩٣١، كذلك قاموا أيضاً بمقاطعة ثم حرق عربات الترامواي، ما أجبر الشركة الأجنبية على الرضوخ لمطالب الشارع السوري وخفض التعرفة لقيمة قرش واحد. في عام ١٩٢٥ حاول هذا الماسوني النبيل إثبات نفسه مرة أخرى زعيماً على دمشق وراعياً لمصالح أهلها.

أما الدكتور الشهبندر، فقد استثمر علاقاته العالمية الواسعة لنصرة الشعب السوري خلال العدوان الفرنسي، ولفت انتباه العالم الصامت إلى المذبحة القائمة بدمشق. من منفاه القاهري، اتصل برئيس حزب الوفد سعد زغلول باشا وحصل منه على تبرع بقيمة ١٠٠ ليرة سورية[١٦]. ثم خاطب الشهبندر الأثرياء السوريين المقيمين في الولايات المتحدة، وافتتح مكتب إغاثة للشعب السوري المنكوب حمل اسمه في ديترويت، ميشيغان، يوم ٦ آذار من عام ١٩٢٦. وافتتح أيضاً مكتباً آخر لنفس الغرض في شيكاغو يحمل اسم صديقه الماسوني حسن الحكيم، ومكتباً ثالثاً في العاصمة الأميركية باسم فارس الخوري. نجحت المساعي في تغيير المناخ الدولي تجاه الثورة السورية، وبدأت الصحف العالمية تشير إلى ما يحدث في دمشق بأنه «مجزرة حقيقية».

الصحف الفرنسية وصفت المندوب السامي ساراي بالطاغية واتهمته بأنه «يمحو سورية» بأفعاله. وخوفاً من امتداد الغضب إلى مستعمرات فرنسا الأفريقية، أنهت الحكومة الفرنسية ندب الجنرال ساراي في سورية، واستقبله الفرنسيون الغاضبون بلافتات كتب عليها «مجرم قاتل!»[١٧].

أصبحت «الثورة السورية الكبرى» كما سمّاها السوريون رمزاً لصمودهم في وجه المحتل الفرنسي، وشكّلت حجراً أساساً لوعيهم السياسي على مدى أجيال من الزمن. كانت الثورة من ابتكار وتنفيذ الماسونيين الدمشقيين على الرغم من فشلها العسكري الكبير. وعند انتهاء الثورة تدريجياً عام ١٩٢٧ تفرق رجالها ورموزها، فسافر الشهبندر إلى مصر والحكيم إلى فلسطين مرة أخرى، أما فارس الخوري وجميل مردم بك فقد فضلا ممارسة العمل السياسي السلمي وأعلنا فراقاً بينهما وبين العمل المسلح، مدركين أن نتائج الثورة كانت كارثية على البلاد والعباد. ولدت فكرة تأسيس الكتلة الوطنية من هذا الفشل، وأصبحت بعد تأسيسها أبرز تنظيم سياسي عرفته البلاد في العصر الحديث، يطمح إلى الاستقلال عبر صناديق الاقتراع والديموقراطية وليس عبر قوة السلاح التي أثبتت ضعفها أمام جبروت الجيش الفرنسي ونيرانه. كان تسعة من مؤسسي الكتلة الوطنية من الماسون: فارس الخوري ولطفي الحفار وجميل مردم بك وفخري البارودي وفوزي الغزي ونسيب البكري وعفيف الصلح والأمير سعيد الجزائري والطبيب الدكتور عبد الرحمن كيالي، أحد أعيان مدينة حلب والذي درس وتخرج بصحبة الشهبندر والخوري في جامعة بيروت الأميركية[١٨]. اثنان فقط كانا ماسونيين بالوراثة، الأمير سعيد الجزائري والزعيم فخري البارودي، المنتسب إلى «محفل قاسيون»، الذي كان والده محمود البارودي من الجيل

الأول المؤسس للماسونية الدمشقية مع روبرت موريس سنة ١٨٦٨ [١٩]. أما صديقه المجاهد نسيب البكري الذي شغل منصب نائب رئيس الكتلة، وكان من أبرز قادة الثورة السورية الكبرى في دمشق، فقد بدأ مسيرته الماسونية في «محفل الحكمة» اللبناني في نيسان ١٩٢٢، ثم التحق بمحفل قاسيون الدمشقي لينتخب منبهاً ثانياً في جلساته عام ١٩٢٣ [٢٠].

في مؤتمرهم التأسيسي في بيروت الذي انعقد في تشرين الأول من عام ١٩٢٧، حدد الكتلويون ١٠ نقاط في برنامجهم السياسي، كان من بين هذه النقاط إنهاء القوانين العرفية وحصانة حرية الصحافة والرأي، وإصدار عفو عن المعتقلين والمبعدين، وقف الاعتقالات التعسفية، ووضع خريطة طريق لكيفية إنهاء الانتداب مع جدول زمني لذلك. قالوا إنهم على استعداد للعمل مع السلطات الفرنسية في حال توصلهم إلى اتفاق معهم على نهاية تلك الوصاية، ذلك لأن الانتداب منذ أن فرض بقوة السلاح عام ١٩٢٠ لم يحدد في أي يوم سينتهي وكيف سيحصل السوريون على حكمهم الذاتي. وأقرّ الكتلويون بأن العمل العسكري كان عملاً انتحارياً على السوريين، وأنهم سيستبدلونه بالضغط الشعبي الرامي إلى الوصول إلى عقول وقلوب الشعب الفرنسي، وإلى صناديق اقتراع كل من دمشق وباريس. كان هذا الكلام مختلفاً كلياً عن برنامج الشهبندر السياسي، الرافض لأي مساواة مع الفرنسيين والرافض لأن يعترف بأن ثورته انتهت وذهبت أدراج الرياح. فور إعلان برنامجهم السياسي هاجم الشهبندر رجالات الكتلة الوطنية من القاهرة أشد هجوم، معتبراً أن رجالات الكتلة قد ضلوا طريق الصواب وباعوا الثورة ورجالها.



الكتلة الوطنية في صورة تذكارية عام ١٩٣٢ - الصف الأول من اليمين، محمد النحاس، زعيم حماه نجيب آغا البرازي، عميد الكتلة الرئيس فارس الخوري، رئيس الكتلة هاشم الأتاسي، زعيم الكتلة إبراهيم هنانو، نائب حمص مظهر باشا رسلان، عضو المكتب الدائم الرئيس شكري القوتلي. الصف الخلفي من اليمين، النائب عفيف الصلح، النائب والوزير سعيد الغزي، عضو المكتب الدائم الرئيس سعد الله الجابري، النائب والوزير فايز الخوري. نائب حماه الدكتور توفيق الشيشكلي، نائب دمشق إحسان الشريف.



وفد الكتلة الوطنية قبل سفره إلى باريس عام ١٩٣٦. من اليمين: الرئيس فارس الخوري، الرئيس هاشم الأتاسي، الأمير مصطفى الشهابي، الرئيس جميل مردم بك.

الكتلة الوطنية

هيمنت الكتلة الوطنية على المشهد السياسي السوري من عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٤٦. وقد كانت عبارة عن تجمع لعلية القوم، ولم تكن حزباً سياسياً بالمعنى الكامل، كانت رابطة تجمّع أعضاؤها حول أفكار وأهداف وطنية صادقة جوهرها الحرية والاستقلال، لم يكن لرجالات الكتلة برنامج سياسي واضح سوى إخراج المحتل من الأراضي السورية، ولم يكن لديهم طموح سياسي في العروبة أو الإسلام. وُلدت التجربة من فشل ثورة الأطرش والشهبندر، واستفادت من إبعادهم عن المسرح السياسي لعقد كامل من الزمن. حزب الشهبندر، حزب الشعب، غاب مع مؤسسه وفقد ما بقي من الشهبندريين لشعبيتهم الكبيرة في المجتمع السوري والدمشقي بالتحديد بسبب آلام الثورة السورية، فقد اتُّهم الحزب بجرّ البلاد إلى مواجهة رعناء غير مدروسة كادت أن تدّمر المدينة عن بكرة أبيها، لو لم تتوقف على أيدي العقلاء من التجار والوجهاء. وتوجه عدد كبير من مؤيدي الشهبندر السابقين للانتساب إلى الكتلة الوطنية فور إعلانها، ومنهم الزعيمان الكبيران فخري البارودي وشكري القوتلي، بالإضافة إلى جميل مردم بك ولطفي الحفار وفارس الخوري، الأركان السابقين لحزب الشعب. وكان كل واحد منهم قد أدخل جزءاً من شارعه ورجاله ومؤيديه إلى صفوف الكتلة، ومعهم خبراته الشخصية وماله وعلاقاته الواسعة في المجتمع السوري. فجميل مردم بك على سبيل المثال، كان زعيماً عند طبقة الملاكين الكبار، ولطفي الحفار كان ملكاً في صفوف التجار، أما فارس الخوري، فكان يتمتع بشعبية منقطعة النظير في الجامعة السورية وفي كلية

الحقوق على وجه التحديد. كذلك كان فخري البارودي سيّداً في شوارع دمشق بين طلاب المدارس وبسطاء المدينة ومثقفيها. جميعهم عملوا على كتابة قصة نجاح الكتلة الوطنية الباهرة منذ يومها الأول وحتى حصولهم على الجلاء التام في نيسان ١٩٤٦.

باستثناء رئيس الكتلة هاشم الأتاسي وكل من فارس الخوري وابراهيم هنانو، فإن معظم رجالات التنظيم الجديد كانوا من مواليد ١٨٨٠-١٨٩٠، وكان معظمهم من متخرجي المعاهد والجامعات العثمانية العريقة، إما من المعهد الملكي أو من الكلية الحربية في إسطنبول. جمعتهم سنوات العمل أولاً في الإدارة العثمانية ثم في سجون جمال باشا السفاح حاكم دمشق أيام الحرب العالمية الأولى. عملوا في التنظيمات السرية خلال الحرب وتسلموا وظائف حكومية رفيعة في العهد الفيصلي لينفوا جماعياً مع دخول الفرنسيين عام ١٩٢٠. تسعون بالمئة من قيادة الكتلة كانت من المسلمين السنّة، و٨٪ فقط كانوا من المسيحيين، في تهميش واضح - ولو كان غير مقصود - للأقليات العلوية والدرزية. كان ٥٠٪ من رجالات الكتلة الوطنية من دمشق و٤٠٪ من حلب، وتوزع بقية الأعضاء على حمص وحماه واللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا. قرابة التسعين بالمئة من الأعضاء كانوا قد حصلوا على تعليم علماني غير ديني، على الرغم من أن المعاهد الشرعية كانت سائدة يومها في دمشق، و٢٠٪ منهم أكملوا دراستهم إما في أوروبا أو في الجامعة الأميركية في بيروت، بينما كان ٦٠٪ منهم من متخرجي جامعات إسطنبول. أربعون بالمئة من الكتلويين كانوا متفرغين للعمل السياسي، و٢٨٪ كانوا يعملون في سلك القضاء أو المحاماة، و١٢٪ كانوا أطباء و٨٪ كانوا تجاراً ومعهم ٨٪ من موظفي الدولة و٤٪ فقط كانوا ضباطاً متقاعدين من الجيش

العثماني أو الجيش العربي الفيصلي. وقد موّل الكتلةَ الوطنية عددٌ من رجالات الاقتصاد السوري، منهم الصناعي المرموق توفيق قباني، والصناعي الحلبي سامي صائم الدهر، ورجل الأعمال والسياسي ميخائيل اليان، والصناعيان الدمشقيان عبد الهادي الرباط وهاني الجلاد وأمين دياب[٢١].

انتُخب هاشم الأتاسي رئيساً للكتلة مدى الحياة يعاونه فارس الخوري عميداً وإبراهيم هنانو زعيماً، بينما انتخب كل من شكري القوتلي وسعد الله الجابري وجميل مردم بك أعضاءً في مكتب الكتلة الدائم. وقد أدار هؤلاء الرجال شؤون الكتلة اليومية من مكتب الكتلة القائم في حيّ القنوات على مدى ١٥ سنة، وحاولوا رسم السياسة الوطنية بإصدارهم القرارات، وسماعهم لمطالب الناس، وتوفير المعونات لعائلات الشهداء، ومفاوضة الفرنسيين.

الهوامش

١ السجل الرسمي لمحفل إسكتلندا الأكبر، رقم ٩، الصفحة ٩٦٢.

٢ السجل الرسمي للمحفل الأكبر الفرنسي (محفل قاسيون – دمشق، ملف G١٠٢، علبة رقم ٥٠٦ بتاريخ ٩ حزيران ١٩٣٤).

٣ رضا، قصة الكفاح الوطني في سورية، ٣٨١.

٤ جريدة الأيام (٢١ كانون الثاني ١٩٣٦).

٥ رضا، قصة الكفاح الوطني، ٤٢١.

٦ مركز الوثائق الفرنسية، ٣٧١-٩٦٢، العدد ٢٠٠٦٥، هارفارد إلى ايدن (١٣ شباط ١٩٣٦).

٧ مركز الوثائق الفرنسية، ٣٧١-١٩٤١، العدد ٢٠٠٦٥، ماكارث إلى ايدن (٤ نيسان ١٩٣٦).

٨ مركز الوثائق الفرنسية، ٣٧١-١٧٤٤، العدد ٢٠٠٦٥، ماكارث إلى ايدن (٣١ اذار ١٩٣٦).

٩ تيري ميليت، المريول والطربوش، ١٠٨.

١٠ الشهبندر، عبد الرحمن. ثورة سورية كبرى، ٥٤-٥٥.

١١ نفس المصدر.

١٢ الحفار، سلمى. لطفي الحفار، ١٤٠.

١٣ نفس المصدر.

١٤ نفس المصدر.

١٥ فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ١٧٨.

١٦ رالف كوري. في صناعة شخصية قومية عربية، ٢٧٢.

١٧ لو بيتي تباريزين (١٢ تشرين الثاني ١٩٢٥).

١٨ حادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، ١٥٥.

١٩ تيري ميليت، المريول والطربوش، ٥٧.

٢٠ نفس المصدر.

٢١ مقابلة المؤلف مع الكاتبة سلمى الحفار الكزبري (بيروت، ١ أيار ١٩٩٨).

ظريف دمشق وزعيمها
فخري البارودي ١٨٨٩-١٩٦٦

الزعيم الوطني الكبير فخري البارودي كان علامة فارقة في تاريخ سورية المعاصر، تجسدت في شخصيته الفريدة أنبل صفات المواطنة الصالحة والتفاني في خدمة المجتمع والقضية العربية عموماً والسورية خصوصاً. لم يعرف عن «فخري بك» أي نشاط ماسوني، ولم توجه إليه أي تهمة من هذا النوع طوال حياته، والبارودي نفسه لم يأتِ على ذكر الماسونية في كل أدبياته ومذكراته. المعروف جيداً هو علاقة أبيه محمود البارودي بالعشيرة الماسونية، حيث كان من مؤسسي أول محفل دمشقي في فندق ديمتري مع الأميركي روبرت موريس عام ١٨٦٨. بالرغم من الخلافات العائلية بين الأب وابنه المشار إليها بإسهاب في مذكرات البارودي، يبدو أن البارودي دخل في صفوف الماسونية أيضاً وهو في الرابعة والثلاثين من العمر، وتدرج

في صفوفه بصمت، ولكنه لم يستمر طويلاً، ولعله لم يجد أي منفعة من البقاء في تنظيم إشكالي من هذا النوع. صفات البارودي الاستثنائية وشعبيته بين الناس كانت تجعل من هذا الرجل صيداً ثميناً لأي جمعية أو تنظيم أو حزب سياسي، ولكن ماذا يمكن الماسونية الدمشقية أن تعطي لشخص من هذا الحجم، فقد كان الأحب على قلوب السوريين، لا يضاهيه أحد في زعامة دمشق، ثرياً أباً عن جد لا يبحث عن مال أو ثروة جديدة، زاهد في المناصب الرسمية، التي رفضها مراراً وتكراراً طوال حياته. في أرشيف الشرق الأكبر الفرنسي في باريس نجد محضرين اثنين عن محفل قاسيون في دمشق، الأول بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٩٢٣، والثاني في ٤ تموز ١٩٤٩. في كلا المحضرين كان البارودي مذكوراً ومشاراً إليه بصفة رسمية «الأخ». في سجلات المحفل الباريسي نفسه لا يوجد تاريخ واضح لانتساب البارودي إلى الماسونية الدمشقية، ولكن من المؤكد أنه دخل عشيرة البنائين الأحرار ما بين ١١ كانون الثاني و٤ نيسان ١٩٢٣ [1].

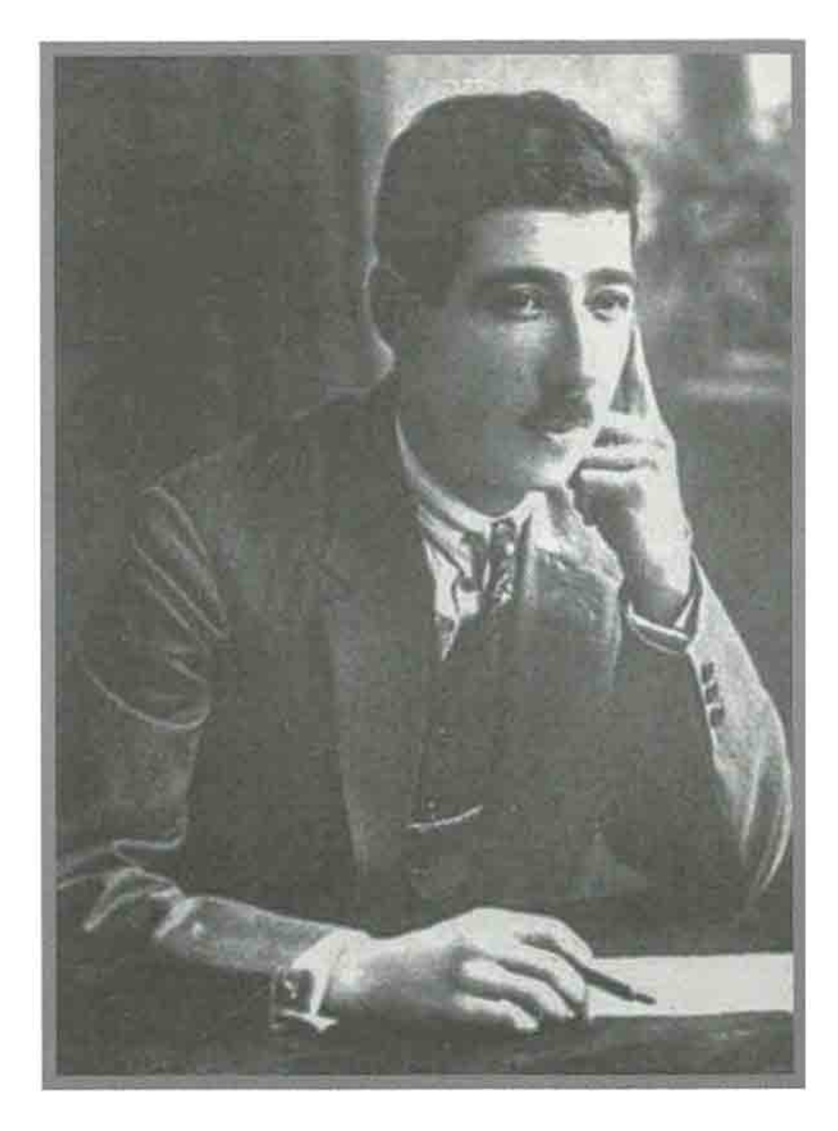
ولد فخري البارودي في دمشق لأب ثري ولأم حسناء من عائلة العلمي الفلسطينية، كان والدها يعمل مستشاراً للسلطان عبد العزيز، المعروف بانفتاحه على الغرب واهتمامه الفنية والموسيقية[2]. ترعرع البارودي بين الخدم والحشم في قصر والده الشهير في حيّ القنوات، الذي لا يزال موجوداً حتى اليوم وقد تحوّل من عدة سنين إلى قسم الترميم والتأهيل في كلية العمارة بجامعة دمشق. في بعض زوايا الدار رسومات ماسونية، إلى اليوم، تماماً كما هو الحال في دار الأمير عبد القادر الجزائري بحيّ العمارة، وقصر عبد الرحمن باشا اليوسف بحيّ سوق ساروجا، لا نعرف إن كانت قد وضعت على الجدران بأمر من فخري البارودي نفسه أو من قبل أبيه محمود. كان

البارودي الابن الوحيد لأبيه، الذي أحبه كثيراً وتعامل معه بدلال مفرط في سنوات الطفولة، كما يقول البارودي نفسه في مذكراته، فقام مثلاً بتوظيف عدة مربين ومساعدين وطُهاة لخدمته، عملوا سابقاً في قصر السلطان مراد، وجاؤوا إلى دمشق بحثاً عن عمل بعدما تخلى عن خدماتهم السلطان عبد الحميد الثاني عند توليه العرش العثماني عام ١٨٧٦ (٣).

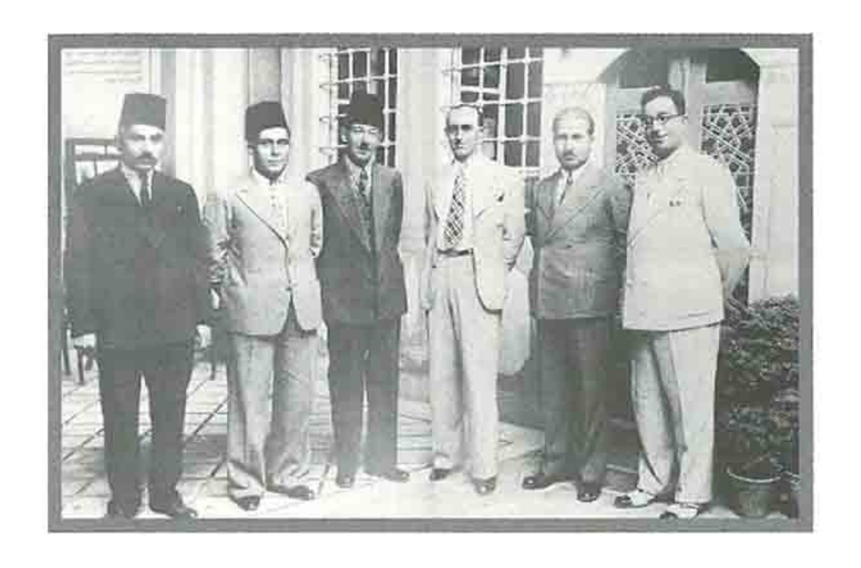
كان البارودي ثائراً منذ نعومة أظفاره، وحاول الخروج من تحت عباءة والده، فطلب أن يدرس الزراعة في إحدى جامعات فرنسا، مشيراً إلى أن معظم رفاقه في مدرسة مكتب عنبر قد أكملوا دراستهم في الطب أو المحاماة. لكن محمود البارودي رفض طلب ابنه المدلل بشدة وفضّل أن يربى أمام عينيه، وأن يتزوج ويتفرغ لإدارة أملاك العائلة دون الحصول على أي شهادة جامعية، تماماً كما فعل الآباء والأجداد. عند فشل كل محاولات الإقناع، هرب البارودي من بيت العائلة في شباط عام ١٩١١ وذهب إلى فرنسا لإكمال حلم حياته في جامعة مونبيليه، ولكنه أُجبر على العودة إلى دمشق بعد عام واحد فقط بعدما قُطع عنه المصروف الشهري ومُنعت والدته أو أي فرد من أسرته من تقديم يد العون للفتى الثائر. عاد البارودي إلى دمشق مكسور الخاطر والجناح، وجال في شوارعها بغضب، ومن شدة تألمه صار يكتب على الجدران مثل المجانين: «تعلم يا فتى، فإن الجهل عار!». لشدة تأثره بما شاهده من رقيّ وعمارة أنيقة في أوروبا، طلب من أحد الرسامين الأجانب رسم صور لمدينتي فيينا وباريس داخل إحدى الغرف الأرضية في قصره بدمشق، في خروج واضح عن طراز البيوت الدمشقية وديكورها. في الثلاثينيات، بعدما أصبح زعيماً في دمشق، حاول البارودي العودة إلى مقاعد الدراسة ودخل كلية الحقوق في جامعة دمشق

عندما كان صديقه في الكتلة الوطنية فارس الخوري عميداً لها، ولكن مشاغل الحياة والعمل السياسي لم تسمح له بأن يُكمل تعليمه مرة أخرى.

بعد العودة من فرنسا إلى دمشق عام ١٩١٢، أجبر محمود البارودي ولده على الزواج والعمل في أملاك العائلة الواسعة في قرية دوما بريف دمشق، لكن هذه الحياة التقليدية لم ترضِ البارودي بالمطلق. عمل لفترة وجيزة في الصحافة، من دون علم والده طبعاً، وأصدر مجلة أسبوعية ساخرة تدعى «حط بالخرج»، قام بتحريرها بنفسه باللغة الدمشقية العامية، وكان يوقّع جميع افتتاحياته باسم مستعار، «عزرائيل»[4]! عند معرفة أبيه أُجبر البارودي على التخلي عن المشروع، فعمل لفترة وجيزة كاتباً في عدلية دمشق، والهدف أيضاً كان كسر روتين حياة الرخاء والوجاهة والترف، ثم التحق بالجيش العثماني بصفة متطوع، علماً أنه كان معفىً من خدمة العلم لكونه وحيداً لأمه. أُرسل إلى مدينة بئر السبع الفلسطينية في صحراء النقب، وحارب إلى جانب العثمانيين ضد الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى ووقع أسيراً في أيدي الحلفاء عام ١٩١٧. سيق مكبلاً إلى مصر وبقي في قبضة الإنكليز حتى نهاية الحرب.



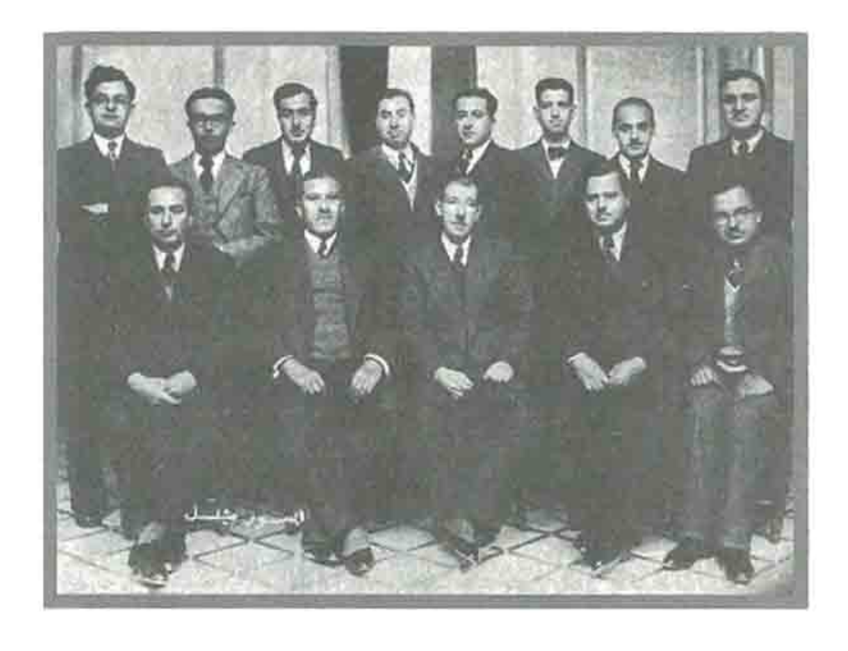
زعيم دمشق فخري البارودي.



الزعيم البارودي في مكتب الكتلة الوطنية عام ١٩٣٢ . من اليمين، الدكتور سامي الميداني (رئيس جامعة دمشق مستقبلاً)، معاون مدير شركة الكهرباء الفرنسي، مدير الشركة الفرنسي، فخري البارودي، نائب دمشق المحامي سيف الدين المأمون، الوجيه الدمشقي مهدي مرتضى.



زعماء الكتلة الوطنية عائدين من مفاوضات الجلاء الأولى في باريس - حلب، أيلول ١٩٣٦. من اليمين: الزعيم فخري البارودي بلباس القمصان الحديدية، وزير المالية إدمون حمصي، سعد الله الجابري، الرئيس هاشم الأتاسي، عميد الكتلة فارس الخوري.



أعضاء مكتب البارودي في عام ١٩٣٤. الصف الأول من اليمين، السياسي الفلسطيني أكرم زعيتر، غير معروف، فخري البارودي. بشير السعداوي، غير معروف. الصف الثاني من اليمين، بشير رمضان (رئيس غرفة تجارة دمشق في الستينيات)، الدكتور أحمد السمان (رئيس جامعة دمشق في الخمسينيات)، أحمد عبد الجواد. الدكتور فريد زين الدين (سفير سورية في الولايات المتحدة في الخمسينيات)، غير معروف، غير معروف، الدكتور ناظم القدسي (رئيس الجمهورية ما بين ١٩٦١-١٩٦٢)، فؤاد المفرج مدير مكتب البارودي.



رجالات الكتلة الوطنية في مطلع الثلاثينيات، الصف الأول من اليمين: أبو الهدى الحسيبي، نائب دمشق فايز الخوري، الزعيم فخري البارودي، نائب دمشق إحسان الشريف، نسيب الكيلاني. الصف الخلفي من اليمين: الرئيس لطفي الحفار، نائب دمشق عن الطائفة اليهودية يوسف لينادو، نائب رئيس الكتلة نسيب البكري، الرئيس محمد علي العابد، نائب دمشق زكي الخطيب، الرئيس جميل مردم بك.



الزعيم البارودي بلباس الجيش السوري يقدم بندقية رمزية
لرئيس الوزراء صبري العسلي خلال أسبوع التسلح عام ١٩٥٦.



فخري البارودي أيام الشيخوخة يعيد إحياء رقصة السماح في دمشق نهاية الخمسينيات.



نخبة من وجهاء دمشق وفنانيها في منزل البارودي عام ١٩٥٩ . من اليمين : الفنان سعيد فرحات، المحامي نجاة قصاب حسن، الوجيه حسني تللو، فخري البارودي، المحامي رياض العابد، الفنان حكمت محسن، غير معروف . في الخلف من اليمين : الفنان تيسير السعدي أحد رواد الإذاعة السورية والنجم فهد كعيكاتي (صاحب شخصية أبو فهمي)، الفنان صبري عياد، عدنان قريش.

عاد البارودي بعد الحرب إلى دمشق وبايع الأمير الشاب فيصل بن الحسين، نجل قائد الثورة العربية الكبرى الشريف حسين بن علي الذي كان قد أعلن ثورة مسلحة بمساعدة الإنكليز ضد الدولة العثمانية قبل سنتين. خلال زياراته المتكررة للعاصمة السورية قبل الحرب، كان الأمير فيصل يحلّ ضيفاً في دار محمود البارودي بحيّ القنوات، ومن هنا تعرف إلى «فخري بك» وأحبه، وعينه حاجباً خاصاً له طوال فترة حكمه في دمشق، الممتدة من تشرين الأول ١٩١٨ وحتى معركة ميسلون الشهيرة في صيف عام ١٩٢٠، عندما خلع الجيش الفرنسي المحتل فيصل عن عرش الشام ونفوه إلى مدينة حيفا في فلسطين ثم إلى أوروبا. أما البارودي فقد حُكم عليه بالإعدام لكونه من حاشية الملك الهاشمي فهرب إلى إمارة شرق الأردن قبل صدور مذكرة اعتقاله، وبقي لاجئاً سياسياً عند الأمير عبد الله شقيق فيصل حتى شمله العفو الفرنسي الأول سنة ١٩٢٣. في هذه الفترة، وبعد عودته من عمان، دخل البارودي في الماسونية عبر «محفل قاسيون»، ولعله وجد في داخلها يومئذ حماية معينة من بطش الفرنسيين وملاحقتهم له.

بعد سنتين انتسب البارودي إلى حزب الشعب، بقيادة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الذي عرفه جيداً من خلال عملهما المشترك في بلاط الملك فيصل، عندما كان الأخير وزيراً للخارجية، وشارك في الثورة السورية الكبرى مع رفاقه في الماسونية الدمشقية، فحكمت عليه فرنسا بالإعدام مجدداً، ولم تنفع الماسونية بشيء، وهرب مرة ثانية إلى عمان ومكث فيها قرابة عامين. ضاق عيش البارودي في منفاه الأردني، وقلت موارد الأملاك والمحاصيل المرسلة شهرياً من أهله في الشام، فقرر أن يعيش من عرق جبينه، تماماً كما فعل وهو في ريعان الشباب، وقام بفتح مطعم للمثقفين في العاصمة الأردنية،

سماه «الندوة»، يقدم فيه السندويش والمرطبات، وكان ذلك استثماراً غريباً لرجل عرف وفرة عظيمة من المال في حياته. مع ذلك، بقيت الهموم تحاصر البارودي من كل حدب وصوب، فلجأ إلى عمل جديد، واتفق مع صديقه الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان مدير قسم اللغة العربية في الإذاعة البريطانية، على أن يقدم سلسلة حلقات توعية للأطفال العرب يحدثهم فيها عن المواطنة وكيفية مكافحة الاستعمار عبر الثقافة والقلم بدلاً من البندقية. وبالفعل، سُجلت أولى حلقات البارودي، ولكن سلطة الانتداب الفرنسي قطعت التيار الكهربائي عن دمشق لمنع صوت الزعيم السوري من الوصول إلى أهله عبر الأثير، خوفاً من تأثيره القوي في الشباب السوري، ثم ضغطت على الإذاعة البريطانية لتوقف البرنامج. في آخر مراحل اليأس، قرر البارودي التطوع في الجيش العراقي الملكي، لأنه كان مساعداً سابقاً لملك العراق فيصل الأول، الذي تولى عرش بغداد بعد خلعه عن عرش الشام، ولكن الحكومة العراقية رفضت الفكرة لأنه مواطن سوري لا يحمل الجنسية العراقية.

في عام ١٩٣٢، انضم البارودي إلى الكتلة الوطنية وانتخب نائباً عن دمشق في المؤتمر الدستوري الأول المكلف صياغة أول دستور جمهوري للبلاد. أعيد انتخابه نائباً عن دمشق في كافة الدور التشريعية من عام ١٩٢٨ وحتى ١٩٤٣ وفاز بأغلبية مطلقة في كل مرة. رفض تسلم أي منصب حكومي طوال حياته بالرغم من الوزارات المنوعة التي عرضت عليه في عهد الكتلة، وفضل البقاء نائباً تحت قبة البرلمان، مدافعاً عن حقوق الفقراء والمساكين والمبدعين والوطنيين الأحرار.

مكتب البارودي

في عام ١٩٣٤ أسس فخري البارودي أول مركز دراسات وأبحاث عرفه العالم العربي يدعى «مكتب البارودي للدعاية والنشر»، هدفه الرئيسي إيجاد قاعدة إعلامية وفكرية للحركة الوطنية السورية. استأجر ركناً في مقر الكتلة الوطنية القريب من داره في حيّ القنوات لإنشاء المشروع، الطامح إلى قيادة «ثورة فكرية» في العالم العربي، قوامها البحث العلمي والنشر، ونسف الحدود المصطنعة في المشرق العربي (أي حدود اتفاقية سايكس بيكو) ونبذ الطائفية والعشائرية والقبلية. اشترى مطبعة لطبع الدوريات والدراسات الصادرة عن مكتب البارودي، ثم لإرسالها إلى كافة أعضاء الطبقة السياسية في سورية ولبنان وفلسطين وتوزيعها مجاناً على الجامعات والجوامع والكنائس ودور العبادة اليهودية، إضافة إلى كبرى الصحف العربية. راوحت المواضيع بين إجرام العصابات الصهيونية في فلسطين، مروراً بحق تقرير المصير لشعوب العالم الثالث، وصولاً إلى قضية لواء إسكندرون. لوضع كل الدراسات، تعاقد البارودي مع نخبة من الشباب من أمثال الدكتور ناظم القدسي، القانوني اللامع من مدينة حلب المتخرج حديثاً في جامعة جينيف والذي أصبح لاحقاً رئيساً للوزراء ثم رئيساً للمجلس النيابي قبل توليه رئاسة الجمهورية السورية في مطلع الستينيات، وفريد زين الدين، المتخرج في جامعة بيروت الأميركية الذي أصبح سفيراً لسورية في كل من واشنطن وموسكو في الخمسينيات، وكان من أعضاء الوفد السوري المؤسس في الأمم المتحدة عام ١٩٤٥. من ضمن المتدربين والباحثين في مكتب

البارودي المحامي الشاب إدمون رباط، الذي شارك في مفاوضات الجلاء الأولى عام ١٩٣٦، وأحمد السمان، المحامي المتخرج في جامعة السوربون الذي أصبح رئيساً لجامعة دمشق أيام الوحدة مع مصر، والصحفي الشاب منير الريس، صاحب جريدة «بردى» الدمشقية، والدكتور قسطنطين زريق، أحد أبرز منظري القومية العربية في العصر الحديث والذي درس التاريخ في جامعة برينستون العريقة وأصبح لاحقاً رئيساً لكل من جامعة دمشق والجامعة الأميركية في بيروت. أما من الشباب العربي، فقد تعاقد البارودي مع كل من أكرم زعيتر من فلسطين، الذي أصبح لاحقاً سفيراً لبلاده في جامعة الدول العربية، وكاظم الصلح من لبنان مؤسس حزب النداء القومي وصحيفة «النداء». مجموعين، شكل هؤلاء الشباب الهيئة العامة لمكتب البارودي، وقاموا بانتخابه رئيساً لهم لمدة خمس سنوات.

إضافة إلى الأبحاث العلمية، وظّف البارودي عدة مصورين شباب داخل فلسطين لالتقاط صور فوتوغرافية عن تجاوزات العصابات اليهودية بحق السكان العرب ومصادرتهم للأراضي والأملاك. كان البارودي يجمع تلك الصور في دمشق ثم يقوم بإرسالها إلى الصحف الأميركية والبريطانية مطالباً بنشرها، مرفقة برسالة رسمية تحمل توقيع: «مع تحيات مكتب البارودي». أسس غرفة خاصة للحفاظ على كافة الخرائط السورية، قبل وبعد ترسيم الحدود عند انهيار الدولة العثمانية، وغرفة أخرى لحفظ أوراق ملكية الأراضي الفلسطينية «الطابو» المدرجة ضمن مطامع الوكالة الصهيونية العالمية، وأرسل نسخاً منها إلى عصبة الأمم. في مطلع الصيف، وبعد تخرج الطلاب السنوي في جامعة دمشق

كان البارودي يقيم حفل كوكتيل في مكتبه، يجمع بين المتخرجين الجدد وأصحاب المصانع والشركات الكبرى في سورية. الطالب المتخرج يدخل ويشكّ وردة في عروة معطفه، في إشاره إلى أنه يبحث عن عمل، ويتغلغل بين أصحاب المعامل ليعرّف عن نفسه واختصاصه. وبذلك يكون فخري البارودي صاحب أول مكتب «توظيف» في دمشق، ولكنه كان مجاناً طبعاً.

وزّع البارودي العمل على ثلاث لجان: الأولى اقتصادية، تُعنى بدراسات الصناعة والتجارة والتعاريف الجمركية والنقل، والثانية ثقافية، تهتم بالفنون والتمثيل وتشجيع المواهب الشابة والرياضة والغناء والعزف، والثالثة سياسية، هدفها الحوكمة والدستور والحياة الحزبية والنيابية. كذلك أوجد البارودي «غرفاً» للدراسات محددة بحسب المناطق الجغرافية: شمال أفريقيا، فلسطين، سورية ولبنان، الحجاز، العراق، وأوروبا والأميركيتين لتوفير المعلومات أمام الباحثين كذلك أنشأ البارودي مكتبة ضخمة، واشترك بعدة صحف عالمية ومحلية: ٢٤ من لبنان، ١٧ من دمشق، ٩ من البرازيل، ٨ من بغداد، ٧ من حلب، ٥ من القاهرة، اثنتان من اللاذقية وطرابلس، وواحدة من كل من أنطاكيا وزحلة وحمص وزغرتا والقدس ويافا والموصل وعمان وليبيا والجزائر واليونان وإيطاليا وتشيلي. تمويل المشروع كان من طريق الاشتراكات وتبرعات الأعيان والمؤسسات السورية، والبارودي نفسه دعم المكتب الذي حمل اسمه من ماله الخاص بمبلغ ٤٠ ألف قرش، تُصرَف على مدى عامين. الاشتراك بدراسات ونشرات البارودي كان عبارة عن ٥ قروش شهرياً، تضاف إلى قرابة عشرة آلاف ليرة سورية من التبرعات. الفائض من المال كان يُدفع على الهدايا

مثل سيف دمشقي لقائد ثورة ١٩٢٥ سلطان باشا الأطرش، وعلم سوري من الحرير الدمشقي مقدم إلى الرئيس الجليل هاشم الأتاسي باسم مكتب البارودي عند انتخابه عام ١٩٣٦. إضافة إلى ذلك، قام مكتب البارودي بطباعة كتاب عن تاريخ المطبخ الشامي، وآخر عن مؤتمر بلودان، وكتيب حمل اسم «دليل الشرطي» لفخري البارودي نفسه، يحتوي على إرشادات لرجال الأمن والشرطة عن كيفية التعامل مع المواطنين، وتعليمات مصورة متعلقة بكافة تفاصيل مهنتهم، من لمعة الحذاء وصولاً إلى كيفية وضع المسدس على الخصر. أخيراً نشر المكتب دراسة بعنوان: «كارثة فلسطين» بقلم البارودي، وترجم مذكرات أدولف هتلر من الألمانية إلى العربية بعنوان: «كفاحي».

مشاريع ريادية أخرى

إضافة إلى عمله السياسي، كان البارودي من أعيان مدينة دمشق وأشهر ظرفائها على قرابة نحو نصف قرن. تعددت مواهبه، شاعراً وكاتباً وراعياً للفنون والرياضيين، وأستاذاً لرقص السماح. عمل على دعم المسرح السوري وأسهم في تأسيس إذاعة دمشق عام ١٩٤٧، وبعدها بثلاث سنوات كان من مؤسسي نادي الموسيقى الشرقي مع زميله أحمد عزت الأستاذ في حيّ سوق ساروجا قرب جامع المدرسة الشامية. ولم يحظَ أي من تلك المشاريع حتى مكتب البارودي برواج وشعبية مثل «مشروع الفرنك» ومشروع «صنع في سورية». في مشروعه الأول كان البارودي يطلب من كل مواطن التبرع بفرنك سوري واحد شهرياً (ما يعادل خمسة قروش) لجمع مبلغ ثابت ومحترم بشكل دوري يخصص لمشروع نفعي

للعموم، كترميم جسر مثلاً، أو تزفيت طريق أو شراء مواد تعليم مدرسة نائية. رفض البارودي تقبل تبرعات تزيد على فرنك سوري واحد، وكان يقول دوماً: «هذا المشروع من الفقراء يبدأ وإلى الفقراء يعود، أريد ديمومة التبرع الشهري ولا أبحث عن أرقام كبيرة من الأفراد. الكل يستطيع التبرع بفرنك سوري واحد، غنياً كان أو فقيراً. أريد إشراك الفقراء في نهضة الأمة السورية، ولا أريد لتبرعات الأغنياء أن تطغى على تبرعات الطبقة الوسطى وتبرعات المحتاجين أنفسهم». البارودي كان يروّج لمشروع الفرنك بنفسه، بطباعة صور له حاملاً فرنكاً سورياً كبيراً، يوزعها على الصحف والمجلات السورية، ولكن بسبب النجاح الباهر الذي لاقاه «مشروع الفرنك» منعته فرنسا من الاستمرار، ومات مع نهاية عام ١٩٣٩.

المشروع الآخر «صنع في سورية» كان يهدف إلى تشجيع الصناعة الوطنية، بدأه البارودي بوضع «الميثاق الاقتصادي» ووزعه على تجار دمشق طالباً من الجميع أن يعتبروه نبراساً في عملهم التجاري. جاء في الميثاق: «السنطيم أساس المليون والمال أساس الاستقلال»، ثم أضاف: «من أراد حياة بلاده يعمل بميثاقها الاقتصادي». الميثاق كان يطلب من التجار عدم استيراد ما هو موجود في الأسواق المحلية، ويشجع الناس على شراء حاجاتهم من مزروعات وأجبان وقطنيات وملابس. كان يدور على أسواق العاصمة ويخاطب الناس بنفسه قائلاً: «الجهاد لا يكون بحمل السلاح فقط، الجهاد الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لا يقلّ قداسة في محاربة العدو».

أما بالنسبة إلى دعم المواهب الشابة، فقد استثمر الكثير من الجهد والمال مع الممثل الكوميدي عبد اللطيف فتحي في الأربعينيات، وشجعه على

استبدال اللهجة المصرية أو الفصحى السائدة في المسرح يومها باللهجة الدمشقية المحكية، ودعم مجموعة فنانين شباب منهم رياض شحرور وسعد الدين بقدونس ونهاد قلعي، الذي تأثر بفخري البارودي لدرجة أنه استعار نبرة صوته «السوبرانو» في تجسيد شخصية «حسني البورظان» في أعمال الأبيض والأسود في التلفزيون السوري. إضافة إلى دعم البارودي المونولوجيست الموهوب سلامة الأغواني ومطرب الموشحات فتى دمشق بهجت الأستاذ ومطرب القدود صباح أبو قوس، الذي جاء إلى دمشق من مسقط رأسه في حلب وهو فتى صغير يستعد للسفر إلى أوروبا. سمع البارودي صوته الخلاب، وطلب من والدته أن تبقيه في دمشق وتكفّل بكل مصاريف علمه، وأعطاه راتباً شهرياً وجاء بأهمّ أساتذة الموسيقى الشرقية لتعليمه فنّ الغناء. عندما أصبح جاهزاً أدخله إذاعة دمشق مطرباً محترفاً، ودعاه للغناء أمام الرئيس شكري القوتلي بعدما أطلق عليه اسماً فنياً مستوحىً من اسم البارودي نفسه ليصبح الفتى يعرف باسم «صباح فخري».

ما بين ١٩٤٣-١٩٦٣، تحول منزل البارودي في القنوات إلى محجّ لكافة الفنانين والمثقفين العرب، تزوره أم كلثوم كلما زارت دمشق، ومحمد عبد الوهاب وغيرهما. يدور داخل أرض دياره نقاشات في السياسة والأمور الفكرية بكل أنواعها. عند انضمامه إلى الكتلة الوطنية مطلع الثلاثينيات، أعطى البارودي رفاقه زخماً منقطع النظير في شوارع دمشق، حيث كان قريباً من زعماء الأحياء وطلاب المدارس، تحديداً في التجهيز ومكتب عنبر، يقودهم عند الضرورة في تظاهرات تعمّ شوارع المدينة، وتُغلَق الأسواق احتجاجاً على ممارسات الفرنسيين. للتقرب من الشباب،

كان يشاركهم ألعاب كرة القدم، ويحضر عروضهم المسرحية. بناءً على هذه الشعبية، أسس البارودي ما عُرف أولاً بـ «الشباب الوطني»، وهو الذراع شبه العسكرية للكتلة الوطنية، ثم تطور عام ١٩٣٦ ليعرف باسم القمصان الحديدية، المستوحى من القمصان البنية في إيطاليا والسوداء في ألمانيا النازية. هدف قمصان البارودي كان تدريب جيل جديد من السوريين، ليكونوا ثلاثيي الأبعاد مثل رجال النهضة في أوروبا، يجيدون الشعر، والرسم، والفروسية وفن القتال، والعمل الأهلي بكل أشكاله. من أهداف هذا التنظيم خلق بديل للجيش الوطني بما أن الفرنسيين كانوا يرفضون السماح لسورية بأن يكون لها جيش نظامي. كان البارودي يؤمن بالشارع أكثر من النخب السياسية، ويطمح إلى خلق شبكة قوة وخدمات عبر الأهالي لحماية الأحياء وتوفير كافة مستلزمات العيش في ظل الانتداب. ألبس شبابه قمصاناً حديدية اللون، ووضع على أذرعتهم ربطة تشبه تلك المستخدمة في ألمانيا النازية، تتوسطها يد تحمل شعلة منيرة بدلاً من صليب هتلر المعكوف. بسبب التشابه بين لباسهم واللباس النازي، أمرت سلطة الانتداب بحظر التنظيم في سورية بعد أسابيع من إلغاء مشروع الفرنك، وذلك لتقليم أظفار البارودي أكثر فأكثر وتحجيم دوره في المجتمع السوري.

عندما قصف الفرنسيون العاصمة السورية للمرة الثانية في أيار ١٩٤٥، وضربوا البرلمان السوري بالقنابل في محاولة اغتيال رئيس الحكومة سعد الله الجابري ورئيس الجمهورية شكري القوتلي، ترك البارودي قصره وعمله العام وارتدى لباس الشرطة السورية وحمل السلاح مع الدرك

والمتطوعين، في محاولة لإنقاذ سجناء قلعة دمشق، وأُصيب بشظية في رقبته. كرمته الحكومة السورية بوسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة وبرتبة فخرية في الجيش السوري الوليد بعد الاستقلال. لم يفرق البارودي بين حاكم وآخر بالرغم من صداقته وزمالته الطويلة مع رجالات الكتلة الوطنية، واعتبر أنه يعمل من أجل الدولة السورية وليس مع أفراد، ولم ينقطع عن المشهد العام بعد وصول العسكر إلى الحكم مع انقلاب الزعيم حسني الزعيم عام ١٩٤٩. عيّنه الأخير مديراً لمكتب الدعاية في الجيش السوري وتعاقد مع المخرج الشاب إسماعيل أنزور لإنتاج أفلام وثائقية عن هذا الجيش وقدراته، كانت تعرض في صالات السينما خلال حرب فلسطين. في عام ١٩٥٦ عمل في لجنة «أسبوع التسلح» لجمع المال للجيش السوري، مع المحامي رياض العابد ونقيب الصحفيين نصوح بابيل ومفتي سورية الدكتور أبو اليسر عابدين، وقاموا بجمع مبلغ من المال وصل إلى ٢٥ مليون ليرة سورية.

بالرغم من إيمانه العميق بالوحدة العربية، عارض البارودي الوحدة السورية المصرية بشدة عام ١٩٥٨، واعتبر أن طريقة قيام الوحدة على أيدي مجموعة عقداء في الجيش كانت خاطئة لأنها تجاوزت رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وحذر من أن النظام الاشتراكي المتبع في مصر بعد ثورة الضباط الأحرار سوف يدمر اقتصاد سورية. وجّه عدة رسائل مفتوحة إلى الرئيس جمال عبد الناصر وممثله في الإقليم الشمالي المشير عبد الحكيم عامر، مؤكداً أن الدولة البوليسية لن تنجح في سورية، ومندداً بالاعتقالات التعسفية ومنع الأحزاب وإغلاق الصحف، معنوناً إحدى رسائله بتحذير: «لقد بدأ الخوف والنتائج أكبر ما تتصورا».

عند مجيء حزب البعث إلى الحكم عام ١٩٦٣ أغلقت نوادي البارودي التي كانت قد بدأت تصغر وتتلاشى بسبب ضيق المال، لأنه صرف كل ما يملك على الحركة الوطنية. باع قصر أسرته العريق في القنوات عام ١٩٥١ وانتقل إلى دار جديدة في حيّ كيوان خلف ساحة الأمويين. تفرغ يومها لتأليف مذكراته، ولوضع دراسة عن آلة الناي وتبسيط السلم الموسيقي، إضافة إلى موسوعة ضخمة عن الموسيقى الشرقية، حرقت جميع أوراقها في صيف عام ١٩٦٣ خلال مواجهات دامية دارت بين البعثين والناصريين بعد إجهاض محاولة انقلاب قام بها الضابط جاسم علوان واشتبك مع ضباط البعث عند مبنى التلفزيون في ساحة الأمويين. بعض الانقلابيين دخل دار البارودي هرباً من الملاحقة، وكان الرجل خارج المنزل يومها، فردّ الجيش بقصف المنزل وتدمير كل محتوياته. انتقل بعدها البارودي إلى منزل بالإيجار في حيّ ركن الدين، وعاش سنواته الأخيره فيه، وحيداً ومهمشاً من حكّام سورية الجدد، حيث توفي يوم ٢ أيار ١٩٦٦.

خرجت له جنازة شعبية ورسمية تليق برجل عظيم مثله. تجمهر أهالي دمشق أمام جامع بدر في حيّ أبو رمانة في انتظار قدوم الموكب من دار شقيق البارودي في المهاجرين. ما من دمشقي قديم إلا حضر في وداع سيد الظرفاء وشيخ شباب سورية، حيث تحولت الجنازة إلى مناسبة اجتماعية لأهالي دمشق للتحدث مع الأصدقاء بصوت منخفض وحزين على غياب هذا الرجل الكبير الذي التفّت دمشق حوله منذ العشرينيات وحتى وفاته. ظهر الموكب من بعيد والنعش ملفوف بالعلم السوري ومرفوع على أكتاف رجال الجيل الثاني والثالث من رجال البارودي وهم يهتفون: «لا الله إلا الله... فخري بك حبيب الله». بعد الصلاة سار

الموكب برفقة الشرطة والدرك إلى القصر العدلي. وهنا جاءت مجموعة من الشباب ليخطفوا النعش ويسيروا به إلى البزورية فسوق مدحت باشا ثم سوق الحميدية في عراضة شعبية.

أغلقت الأسواق والمتاجر حين مرور جثمان البارودي حتى بلغ الموكب الجامع الأموي الكبير وصلى عليه الأهالي مرة ثانية، وهكذا عاد فخري البارودي في مماته كما عرفته شوارع دمشق وأحياؤها طوال حياته: سيداً وزعيماً.

الهوامش

١ السجل الرسمي للمحفل الفرنسي الأكبر في باريس – محفل قاسيون (دمشق)، بتاريخ ٣١ كانون الأول ١٩٢٣ و٤ تموز ١٩٤٩.

٢ فخري البارودي، مذكرات، الجزء الاول، ١٢-١٣.

٣ نفس المصدر، ١١.

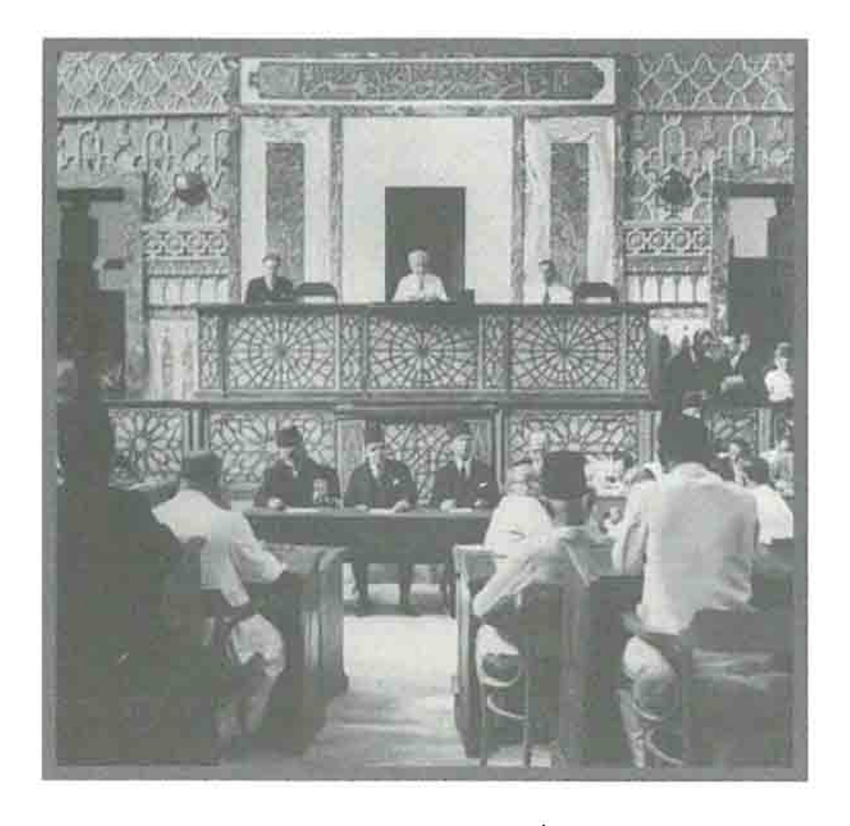
٤ نفس المصدر، ٧.

فارس الخوري، حكيم دمشق

على الرغم من وزنهم في تاريخ النضال السوري ضد المحتل، كان كل من جميل مردم بك وعبد الرحمن الشهبندر من الأسماء الإشكالية في تاريخ سورية الحديث. كلاهما عمل في السياسة وحاول شطب الآخر من على مسرح الأحداث، إما سياسياً أو جسدياً. في واقع الأمر، قاما بتمزيق بعضهما بعضاً بالرغم من صلة الأخوة الماسونية الجامعة بينهما. في عام ١٩٣٧ انفجرت قنبلة داخل سيارة الرئيس مردم بك وهو يدخل بناء السرايا الكبيرة، وعلى الفور وجهت أصابع اللوم إلى معلمه القديم وخصمه الحالي، عبد الرحمن الشهبندر. وعندما قتل الشهبندر على يد مرتزقة المخابرات الفرنسية عام ١٩٤٠، وجهت عائلته أصابع اللوم فوراً إلى جميل مردم بك. هرب مردم بك إثر ذلك إلى العراق ومعه رفاقه لطفي الحفار وسعد الله الجابري، إلى أن برّأت الثلاثة محكمة عسكرية

فرنسية، ولكن شكوك الضلوع بالجريمة لم تفارق «جميل بك» حتى وفاته عام ١٩٦٠.

كان رفيقه الماسوني فارس الخوري أكثر اعتدالاً وقبولاً لدى كافة ألوان الطيف السياسي السوري. ولد في قرية حاصبيا اللبنانية عام ١٨٧٣ ودرس مع الشهبندر في جامعة بيروت الأميركية. تخصص بالرياضيات وبدأ عمله مدرساً بقرية مجدل شمس في الجولان السوري قبل العودة إلى الجامعة الأميركية ليدرس الرياضيات واللغة العربية، في الوقت الذي كان فيه الشهبندر يدرس في كلية الطب في نفس الجامعة. عاد بعدها إلى دمشق وعمل مدرساً في ثانوية مكتب عنبر العريقة ومترجماً في القنصلية البريطانية في ولاية الشام ما بين عامي ١٩٠٢-١٩٠٧. انتسب فارس الخوري خلال هذه الفترة إلى محفل «نور دمشق» وأصبح استاذاً أعظم من الدرجة العليا الثالثة في كانون الأول سنة ١٩٠٩ [١]. بعد سنوات اشتهر الخوري بأنه علاّمة في القانون، على الرغم من عدم دراسته للقانون في حياته، إذ تعلم المهنة على يد محاميّ دمشق وقضاتها، وسرعان ما أصبح أستاذها الأوحد، فقام بتأسيس نقابة المحامين، وشارك في وضع الدستور السوري، وكان من مؤسسي كلية الحقوق في دمشق ثم عميداً لها، يوقع شهادات الدكتوراه في القانون على الرغم من عدم حصوله يوماً على شهادة بالقانون. كان هذا برهاناً على علمه الوسيع وعقله، وشخصيته ذات الأبعاد الثلاثة، التي صنعت منه أسطورة فكرية، ليس في سورية فحسب، بل في كافة البلاد العربية.



فارس الخوري رئيساً لمجلس النواب عند افتتاح الدور التشريعي في صيف عام ١٩٤٢ . يجلس أمامه أعضاء الحكومة الوطنية التي أشرفت على الانتخابات النيابية والرئاسية (من اليمين)، وزير الخارجية والأشغال العامة نعيم أنطاكي، وزير المعارف والعدلية فيضي الأتاسي، وزير المال والاقتصاد الأمير مصطفى الشهابي، دولة رئيس الوزراء عطا الأيوبي.



الرئيسان فارس الخوري وجميل مردم بك في ضيافة الملك فاروق الأول عام ١٩٤٤.



قمة رؤساء الحكومات العربية في القاهرة عام ١٩٥٤ . من اليمين: الرئيس جمال عبد الناصر، الرئيس فارس الخوري، الرئيس سامي الصلح .



الرئيس فارس الخوري يوقع ميثاق تأسيس الأمم المتحدة في أيار ١٩٤٥.



فارس الخوري رئيساً لمجلس الأمن في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ .

في عام ١٩٠٨ رشّح الرئيس الخوري نفسه للمقعد المسيحي في مجلس المبعوثان، نائباً عن دمشق، وبعد ثماني سنوات أيّد ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية، فأمر حاكم ولاية الشام جمال باشا باعتقاله ومثوله أمام القضاء العسكري في مدينة عاليه في جبل لبنان على بعد ١٧ كيلومتراً من بيروت، وهناك حكم عليه بالنفي إلى إسطنبول ليوضع تحت مراقبة المخابرات العثمانية. عاد فارس الخوري بعد خروج الأتراك من دمشق ليؤسس مع أخيه في الماسونية الأمير سعيد الجزائري الحكومة السورية المؤقتة لإدارة شؤون البلاد في ظل غياب لأي سلطة قضائية أو تشريعية بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية. بايع فارس الخوري الأمير فيصل حاكماً جديداً على ولاية الشام، وقام الأخير بتعيينه أول وزير للمالية في عهده، ليعمل مع عبد الرحمن الشهبندر في السرايا الكبيرة، جنباً إلى جنب مع وزير الخارجية الماسوني أيضاً. أسس «فارس بك» وزارته على أنقاض الإرث العثماني، فأصدر عملة ورقية ومعدنية حملت اسم «المملكة السورية»، ووضع النظام الأساسي لوزارته، واختار كافة موظفيها بنفسه. في نفس الفترة عمل مع الشهبندر على إعادة افتتاح كليتي الطب والحقوق، وعلى تأسيس مجمع اللغة العربية في دمشق مع العلامة محمد كرد علي صاحب جريدة «المقتبس»، ليصبح هذا الصرح العلمي من أبرز مراكز اللغة العربية حتى يومنا هذا. عند خلع الملك فيصل عام ١٩٢٠ طُرد فارس الخوري من منصبه من قبل الفرنسيين، ولكنه لم يغادر دمشق وبقي يدرّس في مدارسها وينظم الشعر ويؤلف الكتب، فألّف ثلاثة كتب في القانون والمحاكم الدولية. في عام ١٩٢٣ أسهم في تأسيس الجامعة السورية. وبعدها بأربعة أعوام كان من مؤسسي الكتلة الوطنية، حيث وضع نظامها الداخلي وانتخب عضواً

دائماً في مكتبها الدائم. في عام ١٩٢٥ شارك بالثورة السورية الكبرى مع الشهبندر، فاعتُقل وزُجَّ في سجن أرواد مقابل شاطئ طرطوس. بعدها بعام اعتُقل مرة ثانية عندما كان وزيراً في حكومة أخيه في الماسونية الرئيس أحمد نامي بك، وكانت تهمته هذه المرة الاتصال السري بقيادة الثورة الموجودة في الأردن. رشّح الخوري نفسه نائباً عن دمشق عام ١٩٣٢ وفاز بأغلبية ساحقة ليعاد انتخابه على قائمة الكتلة الوطنية في الأعوام ١٩٣٦ و١٩٤٣ وبعد الجلاء عام ١٩٤٧. خلال رئاسة هاشم الأتاسي (١٩٣٦-١٩٣٩) وشكري القوتلي (١٩٤٣-١٩٤٩) انتُخب الخوري أيضاً رئيساً للمجلس النيابي، ومن أبرز إنجازاته بالإضافة إلى اتفاقية عام ١٩٣٦ ترؤسه للوفد السوري إلى المؤتمر التأسيسي للأمم المتحدة في مدينة سان فرانسيسكو الأميركية عام ١٩٤٥. وقد كان من اللجنة الرباعية التي وضعت علم الأمم المتحدة وشعارها واستفاد الخوري من علاقاته الماسونية لبناء جسور بين العرب والرئيس الأميركي هاري ترومان، قبل تأييد هذا الأخير لدولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

بالإضافة إلى عمله الوطني والماسوني، كان لفارس الخوري أيادٍ بيضاء على الحياة الاقتصادية في سورية، حيث عمل بشكل لصيق مع أخيه في الماسونية وفي الحركة الوطنية لطفي الحفار. وُلد الحفار لأسرة عريقة عملت في تجارة النسيج وصناعته عام ١٨٩١، ودرس على يد شيوخ دمشق وعلمائها، حيث أبدع في علوم القرآن، والشعر الجاهلي، والأدب العربي. كان من مؤسسي غرفة تجارة دمشق ونائباً لرئيسها الحاج عارف الحلبوني وشريكاً في جريدة الإنشاء مع ابن عمه الماسوني وجيه الحفار. تأثر الحفار بالنظام الاقتصادي في صدر الإسلام وبنموذج الصناعة الحديثة المتبع في

ألمانيا، ومن أبرز إنجازاته مشروع جرّ مياه عين الفيجة الذي جلب المياه العذبة النقية إلى سكان العاصمة السورية وحرّر نهر بردى من أعباء توفير مياه الشرب للدمشقيين، فأصبح من يومها يستخدم للزراعة فقط. وقد ساعده فارس الخوري في الحصول على كافة الأوراق اللازمة لمشروع عين الفيجة، وقدم عرضاً للفرنسيين لحفر الآبار ومدّ قساطل المياه. كانت شركة فرنسية تحاول الحصول على نفس الامتياز وعرضت على الخوري والحفار مبلغ ١٠ آلاف ليرة سورية لسحب عرضهما، لكن الرجلين رفضا ذلك، ودعمتهما غرفة تجارة دمشق يومها للحصول على الامتياز، لتبدأ شركة مياه عين الفيجة عملها عام ١٩٣٢، وذلك بعدما وضع الحفار كل ما يملك في إنشائها هبةً منه للدولة السورية. وقدعمل لاحقاً مفتشاً في نفس الشركة لسدّ ديونه المتراكمة.



دولة الرئيس لطفي الحفار.

المشروع الاقتصادي الآخر كان متعلقاً بصناعة الإسمنت، الذي كان بداية الثلاثينيات يغزو الأسواق العالمية كبديل من الحجر في إنشاء العمارات الحديثة. وقد جعلت الاضطرابات السياسية من سوق العقارات السوق الآمن للمستثمرين السوريين والعرب، حيث كان إنتاج الإسمنت المحلي أقل تكلفة من الاستيراد بسبب حجمه وكلفة نقله. في يوم ٨ كانون الثاني من عام ١٩٣٠ أسس لطفي الحفار وفارس الخوري معمل الإسمنت الوطني في دمر شمال غرب العاصمة، برأس مال قدره ١٤٤ ألف ليرة تركية موزعة على أربعة وعشرين ألف سهم بين المستثمرين السوريين[٢]. وبعد ثلاث سنوات من بدء العمل أصبح المعمل ينتج ثلاثين طناً من الإسمنت سنوياً، وارتفع الإنتاج إلى ٦٥ ألف طن مع حلول عام ١٩٣٨ ليغطي ٦٠٪ من حاجة الأسواق السورية. كان الإسمنت الوطني أرخص من الإسمنت المستورد الذي كان يكلف ٤ ليرات ذهبية عثمانية عام ١٩٣٤ مقابل ليرتي ذهب للطن الواحد من الإسمنت المحلي الصنع. وفي عام ١٩٣٦ وصل سعر طن الإسمنت المحلي إلى ليرة ذهبية واحدة، إذ قضى على أية منافسة خارجية في السوق السورية. شكّل الرجلان مجلس إدارة لمعمل الإسمنت، ضم رفاقهم في العشيرة الحرة عطا الأيوبي وجميل مردم بك، ليرتفع عدد الماسون في مجلس الإدارة إلى أربعة. نجح مشروعا عين الفيجة ومعمل الإسمنت، فشغّلا اليد العاملة السورية بعد سنوات من الركود الاقتصادي إثر الأزمة الاقتصادية العالمية نهاية العشرينيات. كذلك ارتفع معدل الاستثمار في سورية ليصبح عدد المعامل الصناعية ٣٦ معملاً صناعياً حديثاً في دمشق و٧١ معملاً ومنشأ في حلب مع حلول عام ١٩٣٤ [٣]. وبعد عامين وصل عدد الشركات المساهمة في دمشق إلى سبع شركات قيمة رؤوس أموالها

بلغت ٦, ١٢ مليون ليرة سورية[٤]. قامت الكتلة الوطنية بشراء أسهم في هذه المشاريع لتموّل نفسها وتحرر أعضاءها من عبء التبرعات الشهرية، وكانت عائدات المشاريع الاقتصادية تصرف على عائلات الشهداء والمعتقلين من صفوف الكتلة وعلى تمويل الإضرابات لسدّ خسائر التجار والحرفيين، ولتشغيل مكاتب الكتلة في دمشق وحلب وحمص وحماه. بناءً على شريان الحياة الذي أوجدته هذه المشاريع، استطاعت الكتلة أن تتربع على عرش الحركة الوطنية السورية منذ عام ١٩٣٢ وحتى استقلال البلاد وجلاء القوات الأجنبية كلياً عام ١٩٤٦.

الهوامش

١ تيري ميليت، المريول والطربوش، ٥٩.

٢ فيليب خوري، سورية والانتداب الفرنسي، ٢٨١.

٣ نفس المصدر ٢٨٢.

٤ نفس المصدر.

الخاتمة

إذا اختلف المؤرخون حول الماسونية ودورها في سورية، فإنه لا يوجد خلاف على قامات وطنية مثل فارس الخوري ولطفي الحفار وجميل مردم بك ورضا سعيد وفخري البارودي وأديب الشيشكلي وغيرهم، وعلى أدوارهم منفردين ومجتمعين في تاريخ سورية الحديث. ولا يكاد يستطيع أحد أن يشكك في وطنية هؤلاء، وفي أنهم عاشوا حياة حافلة بالإنجازات، وساروا تجاه أهدافهم بإصرار وإخلاص. ولا يمكن أحداً أن ينكر أن هؤلاء جميعهم كانوا من الماسون. يبقى السؤال عمّا إن كانوا قد نجحوا في حياتهم لأنهم ماسونيون أو لأن الماسونية كانت قد قامت باستقطابهم لأنهم أعلام في مجالاتهم؟ هل كان سر نجاحهم بسبب ولائهم لعشيرتهم أولاً ووطنهم ثانياً أم العكس، لوطنهم فقط؟

ما لا شك فيه، أن فكرهم وعملهم تأثرا تأثراً بالماسونية. لم تنفع سيرهم العطرة ومكانتهم كآباء مؤسسين للجمهورية السورية في حماية الماسونية الدمشقية من المصير الأسود الذي كتب لها في سورية. أول من غادر المشهد السياسي بينهم كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، الذي سقط قتيلاً مغدوراً في عيادته بدمشق عام ١٩٤٠ على أيدي مجموعة من الشباب السوريين العاملين مع المخابرات الفرنسية. لم يسعفه انتماؤه إلى الماسونية بشيء في حمايته من الاغتيال، وهو في أوج عطائه الوطني. أما خصمه الرئيس جميل مردم بك، فقد اعتزل الشأن العام والسياسة وغاب عن ذاكرة السوريين بعد عمل دام قرابة أربعين عاماً في الحقل الوطني، ولم تحرك الماسونية ساكناً بالدفاع عنه بعد توجيه اتهامات مختلفة إليه، منها بيع لواء اسكندرون للأتراك، وإعطاء تنازلات للفرنسيين، وقتل الشهبندر، والتخاذل في شراء السلاح خلال حرب ١٩٤٨. كذلك لم تستطع الماسونية أن تحميه من قرارات الإصلاح الزراعي التي عصفت بالنخبة السورية أيام الوحدة مع مصر والتهمت أملاك العائلة الواسعة. توفي الرئيس مردم بك عن عمر ناهز السابعة والستين عاماً سنة ١٩٦٠، بعد غياب عن المشهد السوري والماسوني منذ عام ١٩٤٨.

كان حال مردم بك نفس حال زميله الرئيس حسن الحكيم الذي اعتزل العمل السياسي منتصف الخمسينيات وغاب عن المشهد السياسي هو الآخر، ليكمل سنواته الثلاثين القادمة في التقاعد، يؤلف مذكرات وكتباً عن تاريخ سورية المعاصر. لم تنفعه الماسونية في حماية اسمه من النسيان المعتمد من قبل أنظمة الحكم العسكرية المتلاحقة، وغاب عن حضور أي نشاط ماسوني منذ عام ١٩٦١. توفي حسن الحكيم عجوزاً عن عمر ناهز

السادسة والتسعين عام ١٩٨١. أما لطفي الحفار فقد صودرت أملاكه من قبل الاشتراكيين والبعثيين، ومات مفلساً ثكلاً عام ١٩٦٨، بعدما باع داره لأحد أصدقائه لتسديد الديون، ولم تنفع الماسونية بحلّ أيٍّ من مشاكله، بل على العكس، استخدمت ضده من قبل الرئيس جمال عبد الناصر في عهد الانفصال، حيث وُصف السياسي السوري العتيق «بالعميل القديم للاستعمار» متجاهلاً أن الاستعمار حارب الحفار لسنوات طويلة وسجنه وصادر أملاكه مراراً أيام الانتداب الفرنسي[1]. الرئيس عطا الأيوبي مات قبله بسنوات عدة عام ١٩٥١ ولم يرَ تراجع الماسونية الرهيب في عهد الاستقلال أو مصيرها النهائي عام ١٩٦٥. فارس الخوري مات عجوزاً عن عمر ناهز ٨٥ سنة عام ١٩٦٢، قبل ثلاث سنوات من حظر الماسونية في سورية وغاب عن أي نشاط ماسوني منذ عام ١٩٤٨.

عقد الستينيات كان قاضياً بالنسبة إلى الماسونية الدمشقية، شاهداً على غياب أساطينها، إما بسبب الموت أو التقاعد أو التهميش السياسي الممنهج. وعندما قرر الرئيس محمد أمين الحافظ حظر العشيرة كلياً عام ١٩٦٥، كان جميع رجالها قد صاروا على هامش الأحداث والتاريخ ولم ينهض أحدٌ منهم للدفاع عنها.

قرار حظر الماسونية السوري جاء نتيجة كشف السلطات السورية أمر الجاسوس الإسرائيلي إيلي كوهين، الذي عمل وعاش في دمشق مدة أربع سنوات، وكانت داره في حيّ أبو رمانة الدمشقي محجاً لرجال السلطة والمال وضباط الجيش. جاء إلى دمشق عام ١٩٦٢ حاملاً جواز سفر مواطن سوري مهاجر من أميركا اللاتينية يدعى «كامل أمين ثابت»، محملاً

بالمال مدعياً أنه يرغب في العيش والاستثمار في سورية بلد الآباء والأجداد. نتيجة ماله الوافر وكرمه الكبير استقبله الدمشقيون بحفاوة بالغة، مُدّ له السجاد الأحمر وأصبح صديقاً مقرباً من رئيس الدولة محمد أمين الحافظ حيث جرت العادة أن يأخذه معه في جولات ميدانية على الجبهة السورية مع إسرائيل. فور عودته إلى المنزل كان الجاسوس الشهير يبرق سراً إلى رؤسائه في تل أبيب شارحاً بأدق التفاصيل مكان وجود الجنود والمدرعات ومخازن السلاح. كان لهذه المعلومات الفضل في سهولة وسرعة انهزام الجيش السوري عام ١٩٦٧. وفي مساء كل يوم خميس كانت نخبة القوم تجتمع على مائدة كوهين العامرة، من ضباط وأعضاء في الحزب الحاكم ومثقفين وغيرهم، يتحدثون في أمور الدولة والسياسة والجيش، بينما كان المضيف يصغي باهتمام، مدعياً أنه ثمِلٌ من المشروب. دخل كوهين المجتمع الدمشقي بصفة الأعزب، فتدافعت النساء على أبواب داره وغرفة نومه، حيث أفشين في الفراش أسرار أزواجهن التي كان من المفترض أن تبقى قيد الكتمان. وقد وصلت درجة الثقة بكوهين إلى أن الرئيس محمد أمين الحافظ كان ينوي تعيينه وزيراً في الحكومة السورية.

كان كوهين يرسل بانتظام كل ما يسمع ويرى في دمشق، برسائل مشفرة إلى إسرائيل، وأحياناً كان يذهب بنفسه لتبليغها شفهياً. كُشف أمره بمساعدة المخابرات المصرية، ودخل السوريون إلى داره وألقوا القبض عليه بالجرم المشهود. أجريت محاكمة علنية للجاسوس الإسرائيلي ونفذ فيه حكم الإعدام كما هو معروف في ساحة المرجة بدمشق يوم ١٨ أيار ١٩٦٥. كانت قصة كوهين محرجة للغاية للرئيس أمين الحافظ، الذي وثق بهذا الجاسوس وفتح أبواب قصره وخزينة أسراره. وبحثاً عن كبش فداء لأخطائه وإخفاقاته،

وليبرهن الحافظ أنه يلاحق كل ما هو مشكوك في أمره داخل البلاد، ضرب بالحلقة الأضعف في المجتمع، أي بمحافل الماسونية ورجالاتها. كان الماسون السوريون قد تجاوزوا سنّ التقاعد، وكانوا يعيشون على هامش السياسة والأحداث منذ أن جاء حزب البعث إلى السلطة في عام ١٩٦٣. في ١١ آب ١٩٦٥ وقّع أمين الحافظ قراراً يقضي بمنع جميع المحافل والأندية السرية، منها الماسون والروتاري، وكان ذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من إعدام إيلي كوهين. نُشر القرار الرئاسي في جريدة «البعث» الرسمية، وكان هذا القرار بالنسبة إلى أمين الحافظ بمثابة القرار السليم والمتوقع، لإنقاذ نفسه من سيل الاتهامات الموجهة إليه. ويُعتقد أنه قام بالتشاور مع الرئيس جمال عبد الناصر في الأمر الذي كان بدوره قد قضى على الماسونية المصرية رسمياً في حزيران عام ١٩٦٤ عندما طلب منهم فتح دفاترهم المالية وسجلاتهم للتدقيق أمام وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل المصرية، فرفضوا الانصياع لهذا الطلب. اجتاحت أجهزة المخابرات المصرية يومها محافل الماسونية في القاهرة، وقيل إنهم عثروا على مراسلات مع الحكومة البريطانية في محفل مصر الأكبر في شارع طوسون وسط القاهرة[٢]. على الرغم من ذلك، لم يُعتقل أي ماسوني مصري أو سوري في هذه الفترة ولا بعدها. وإلى هذا اليوم، لم يعتقل أي شخص في سورية ولا في مصر بتهمة الانتماء إلى الماسونية.

كان أمين الحافظ شديد الإعجاب بالرئيس جمال عبد الناصر، وكان حاكماً مطلقاً لا يجرؤ أحد على مناقشته أو تحدي أوامره خلال فترة حكمه بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٦. الماسون الدمشقيون، المتعبون والمهمشون منذ عام ١٩٥٨، لم يعترضوا قطّ على قرار الرئيس السوري. قرروا ألا يسبحوا عكس التيار السائد يومها، وألا يعرضوا أنفسهم ومدينتهم للمزيد من

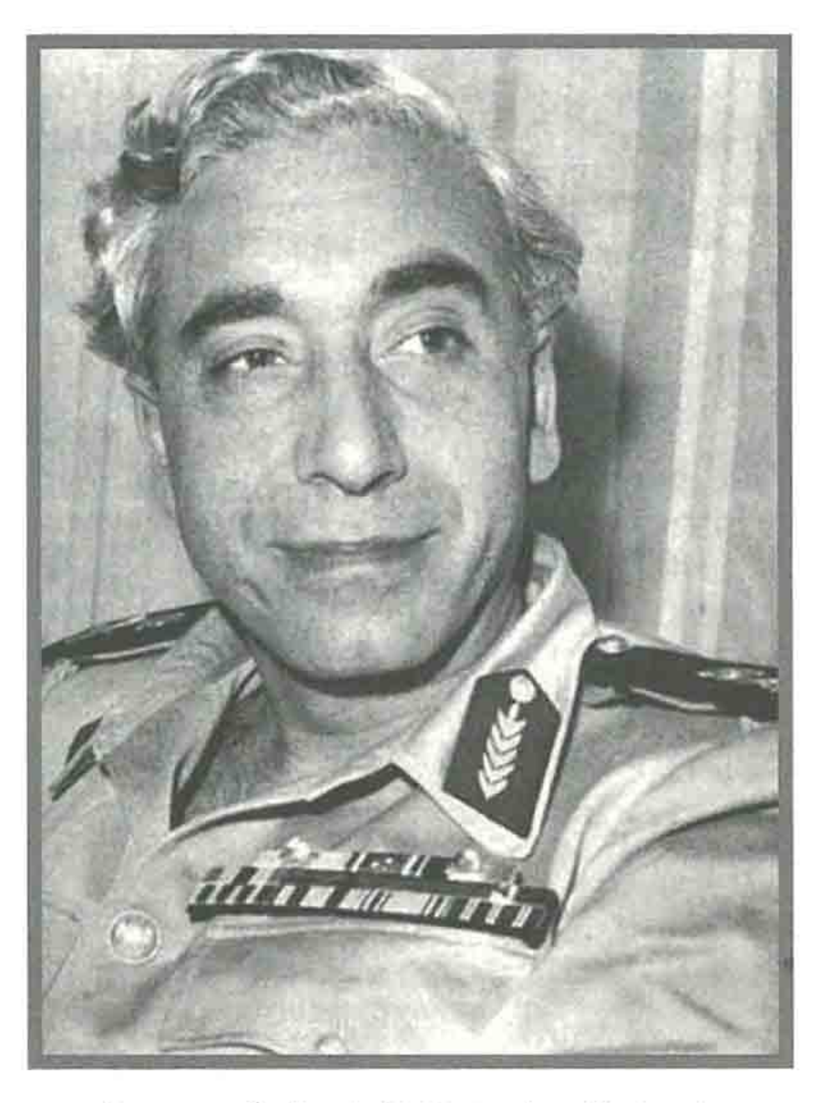
الأذى. فقد كانت السلطة تضرب يميناً وشمالاً بأعدائها، من الاقطاعيين والرأسماليين والانفصاليين، تصادر الأملاك وتحاكم بنحو صوري، وتُعدم من تشاء دون شرط أو قيد، ولم يكن أحد ممن بقي من أعيان دمشق الماسون على استعداد للمجابهة معها، حمايةً أو نصرةً لمحافل دمشق العتيقة.

يبقى السؤال الجوهري: لو كان الماسون هم حقيقة «حكام العالم» أو أعضاء في «الحكومة العالمية في الظل» فلماذا إذاً لم يفعلوا أي شيء لحماية أنفسهم من كل الاتهامات وحماية محافلهم من الإغلاق؟ إن لم يكونوا مذنبين بحق، وكانوا مقتنعين ببراءتهم، فلماذا لم يهبّوا بصوت رجل واحد، بمساعدة الغرب طبعاً، للحفاظ على سمعة عشيرتهم وعلة مكاسبهم السياسية؟ لم يكن الماسونيون الدمشقيون شخصيات عابرة في تاريخ البلاد، بل كانوا سادة ذوي علاقات واسعة ونفوذ كبير في المجتمع. المؤرخون اللاحقون نجحوا بفصل صفة الماسون عن الجيل المؤسس من الجمهورية السورية. كانوا يكرهون الماسونية، ولكنهم يحبون فارس الخوري ورضا سعيد وغيرهم، ولم يكونوا يريدون أن يذكرهم التاريخ بأنهم أعضاء في هذا التنظيم المشبوه. فضّلوا أن يذكرهم التاريخ كوطنيين مخلصين فقط، لا كماسونيين منظمين. هناك شارع رئيسي وسط العاصمة دمشق يحمل اسم «فارس الخوري»، إضافة إلى ساحة في حيّ المزرعة تحمل اسم «عبد الرحمن الشهبندر»، وقاعة أنيقة في جامعة دمشق باسم «رضا سعيد»، وحيّ كامل قرب نوري باشا على اسم صاحب قصره الشهير «عطا الأيوبي».

يتحمّل الماسون الدمشقيون اللوم لأنهم لم يقولوا شيئاً عن أنفسهم، بل تركوا الباب مفتوحاً أمام الاجتهادات والاتهامات. ببساطة، لم يدافعوا عن

أنفسهم بكلمة واحدة أمام التاريخ والمجتمع، خوفاً من بطش أمين الحافظ ورجاله، تماماً مثلما حصل أيام الوحدة مع مصر قبل سنوات قليلة. ولأنهم صمتوا، بقيت الشكوك تدور حولهم حتى يومنا هذا. هل كانت الماسونية حقاً حصان طروادة للصهيونية العالمية؟ وهل كان ماسون دمشق يسعون حقاً إلى أن يحكموا العالم؟ (على الرغم من أنهم لم يفلحوا حتى في حكم مدينتهم طويلاً). سجلّهم في دمشق يشير إلى إنجازات علمية ومجتمعية، ككلية الطب في الجامعة السورية وجمعية المواساة الخيرية والهلال الأحمر ومشروع عين الفيجة، وليس لهم أي إنجاز سياسي يذكر سوى أن الماسون كانوا الآباء المؤسسين للجمهورية السورية وصنّاع استقلالها عن الانتداب الفرنسي. لذا لا نستطيع القول إنهم كانوا عملاء للغرب طبعاً، أو إنهم لم يعرفوا حقيقة الأخوة السرية التي جمعتهم لسنوات طويلة.

يبقى السؤال: هل كانت الماسونية شراً في دمشق أم تنظيماً أهلياً حمل أوزار سنوات من القهر والفشل والأحلام الضائعة؟ هل كان الماسون رجالاً أفاضل يسعون إلى تطوير مجتمعهم، أم أن الماسونية استخدمتهم لتحسين صورتها في المشرق العربي؟



رئيس الدولة محمد أمين الحافظ الذي أصدر قراراً بحظر الماسونية وجميع الأندية والجمعيات السرية في سورية عام ١٩٦٥.



الجاسوس إيلي كوهين يوم إعدامه في ساحة المرجة في أيار ١٩٦٥ .

الهوامش

١ سلمى الحفار الكزبري، لطفي الحفار، ٤٢١.

٢ حادة، الماسونية والماسونيون في الوطن العربي، ٢٥٢.

المراجع

المكتبات الخاصة ومراكز الوثائق الحكومية

متحف الوثائق التاريخية بدمشق (قصر الرئيس خالد العظم)
مركز وثائق الحكومة الفرنسية في نانت
مركز وثائق الحكومة البريطانية في لندن
مركز وثائق الخارجية الأميركية في واشنطن
مكتبة الرئيس فرانسوا ميتيران الوطنية في باريس
قسم التاريخ الشفهي في الجامعة الأميركية في بيروت
مكتبة نعيم يافيث في الجامعة الأميركية في بيروت
محفل نيويورك الماسوني
محفل الشرق الاكبر الفرنسي

جرائد ومجلات

دمشق: الأيام، القبس، المقتبس، بردى، العاصمة، العلم، صوت الشعب، البعث، المنار، الفيحاء، الإنشاء، ألف باء، الرأي العام، الناس، مجلة المضحك المبكي، النصر، النضال، دمشق المساء

حلب: الشعب
حمص: مجلة الإنسانية، مجلة كل جديد، التحرر، السوري الجديد
القاهرة: المقتطف، الاهرام، الجمهورية، مجلة المصور
بيروت النهار، الحياة، لسان الحال
باريس: لو بيتيت باريزيان، لا ريفي

لقاءات المؤلف:

الدكتور جورج لاذقاني، عضو محفل سوريا ولبنان (دمشق، ٣ حزيران ١٩٩٥)
الأديبة كوليت خوري (دمشق، ٢٠ شباط ٢٠١٦)
الدكتور نقولا انسطاس شاهين (دمشق، ٢٩ آذار ٢٠١٦)
السيدة فاتن اليوسف حفيدة عبد الرحمن باشا اليوسف (دمشق، ١٤ تموز ٢٠١٦)
الأمير جعفر الجزائري حفيد الأمير عبد القادر الجزائري (دمشق، ٥ حزيران ٢٠١٥)
السفير الدكتور سامي مدني الخيمي (بيروت، ٢ آذار ٢٠١٦)
الأديبة سلمى الحفار الكزبري (بيروت، ١ ايار ١٩٩٨)
الاستاذ غازي سعيد الغزي (دمشق، ٩ آب ٢٠٠٥)
الدكتور منير العجلاني (بيروت، ١٢ حزيران ١٩٩٨، ١٦ آيلول ١٩٩٩)
الدكتور قتيبة الشهابي (دمشق، ٥ تشرين الأول ٢٠٠٥)
السيد رجا شربجي (دمشق، ٣ تشرين الثاني ٢٠١٠)

مذكرات واوراق غير منشورة:

أوراق الزعيم فخري البارودي
اوراق الرئيس حسن الحكيم
اوراق الدكتور منير العجلاني
اوراق الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

مراجع عربية:

الأتاسي، رضوان. هاشم الأتاسي: حياته وعصره (دمشق ٢٠١٠)
الأرمنازي، نجيب. محاضرات عن سوريا من الاحتلال حتى الجلاء (القاهرة ١٩٥٤)
أبو شادي، أحمد زكي. البناية الحرة: خطرات عن الماسونية (القاهرة ١٩٢٦)
اتلجان، جواد رفعت. اسرار الماسونية (١٩٥٧)
أرسلان، الأمير عادل. مذكرات الأمير عادل أرسلان، (ثلاثة أجزاء، دارالتقدمية، بيروت ١٩٨٣
الأطرش، سلطان باشا. احداث الثورة السورية الكبرى (دار طلاس، دمشق ٢٠٠٧)
الياس، جوزيف. تتطور الصحافة السورية في العهد العثماني (معهد الآداب الشرقية، بيروت ١٩٧٢)
بابيل، نصوح. صحافة وسياسة في سورية (رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٧)
البارودي، فخري. أوراق ومذكرات (جزءين، وزارة الثقافي، دمشق ١٩٩٩)

الباز، جرجي. نازك العابد (دار السلام، بيروت ١٩٢٧)
البواب، سليمان. موسوعة أعلام سورية في القرن العشرين (بيروت ٢٠٠٠)
تلاوي، سعيد. كيف استقلت سورية (دمشق ١٩٥١)
تللو، عدنان حسني. ذكريات قديمة (دمشق ١٩٩٢)
جروس، سماد. من الإنتداب الى الإنقلاب: سورية زمان نجيب الريس (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠١٥)
الجزائري، الأميرة بديعة. طائر في السماء: الشهيد الأمير عز الدين الجزائري (دار الفكر، دمشق ٢٠٠٧)
جمال باشا. مذكرات جمال باشا (بيروت ٢٠١٣)
الحاج، يوسف. في سبيل الحق: هيكل سليمان او الوطن القومي لليهود (بيروت ١٩٣٤)
الحصري، ساطع. يوم ميسلون (مكتبة الكشاف، بيروت ١٩٤٧)
الحفار، لطفي. ذكريات (جزءين، دار ابن زيدون، دمشق ١٩٥٤)
الحفار الكزبري، سلمى. لطفي الحفار: حياته وعصره (رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩٧)
الحفار، وجيه. الدستور والحكم (دار الإنشاء، دمشق ١٩٤٨)
الحكومة، مطبعة. الحكومة السورية في ثلاث سنين ١٩٢٨-١٩٣١ (مطبعة الحكومة، دمشق ١٩٣١)
الحكيم، حسن. مذكراتي: صفحات من تاريخ سورية الحديث (جزءين، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٥)
الحكيم، حسن. الوثائق المتعلقة بالقضية السورية (دار صادر، بيروت ١٩٧٤)

الحكيم، حسن. عبد الرحمن الشهبندر: حياته وجهاده (دار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٨٥)
الحكيم، حسن. مراسلات من الدكتور الشهبندر (أوراق غير منشورة، القاهرة ١٩٢٦-١٩٣٨)
الحكيم، يوسف. سورية والعهد العثماني (المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٦)
الحكيم، يوسف. بيروت ولبنان في عهد آل عثمان (دار النهار، بيروت ١٩٩١)
الحكيم، يوسف. سورية والعهد الفيصلي (دار النهار، بيروت ١٩٦٦)
الحكيم، يوسف. سورية والانتداب الفرنسي (دار النهار، بيروت ١٩٨٣)
حمادة، حسين عمر. الماسونية والماسونيون في الوطن العربي (دار الوثائق، دمشق ١٩٨٦)
حمادة، حسين عمر. شهادات ماسونية (دار الوثائق، دمشق ١٩٨٠)
حمادة، حسين عمر. شهادات روتارية: الروتاري والروتاريون (دمشق ١٩٨٢).
حنا، عبد الله. عبد الرحمن الشهبندر (دار الأهالي، دمشق ١٩٨٩)
خباز، حنا و حداد، فؤاد. فارس الخوري (دار صادر، بيروت ١٩٥٢)
الخلوصي، إحسان. فخري البارودي (دار البشائر، دمشق ١٩٩٩)
خوري، فيليب. اعيان المدن والقومية العربية (بيروت ١٩٩٧)
خوري، كوليت. العيد الذهبي للجلاء (دار طلاس، دمشق ١٩٩٧)
الخير، هاني. مقتطفات من تاريخ دمشق: حكايات وطرائف وصور (مطبعة الصباغ، دمشق ١٩٩٠)

الخير، هاني. صور وطرائف من تاريخ الشام (مؤسسة النوري، دمشق ١٩٨٩)
رافق، عبد الكريم. تاريخ الجامعة السورية (دمشق ٢٠٠٤)
رضا، علي. قصة الكفاح الوطني في سورية (المطبعة الحديثة، حلب ١٩٧٩)
الرفاعي، شمس الدين. تاريخ الصحافة السورية (جزءين، دار ملف العالم العربي، القاهرة ١٩٦٩)
ريان، محمد رجائي. قضية استقلال سورية في الحرب العالمية الثانية (دار نور الدين، اربد ٢٠٠٣)
الريحاوي، عبد القادر. دمشق ومعالمها التاريخية (دار البشائر، دمشق ١٩٩٦)
الريس، منير. الكتاب الذهبي للثورات الوطنية في المشرق العربي (دار الطليعة، بيروت ١٩٦٧-١٩٧٧)
الزركلي، خير الدين. الأعلام (ثمانية أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢)
سعيد، امين. الثورة العربية الكبرى (ثلاثة أجزاء، مكتبة مدبولي، القاهرة)
سلطان، علي. تاريخ سورية: نهاية الحكم التركي (دمشق ١٩٩٦)
سيل، باتريك. الصراع على سورية (دار طلاس، دمشق ٢٠١١)
شاهين، اسكندر. الماسونية: ديانة ام بدعة (بيروت ١٩٩٩)
شلاح، بدر الدين. للتاريخ والذكرى (دمشق ١٩٩٠)
شلاح، بدر الدين. المسيرة التجارية (مطبعة الف باء الأديب، دمشق ١٩٩٢)
الشلق، زهير. من أوراق الإنتداب: تاريخ ما اهمله التاريخ (دار النفائس، بيروت ١٩٨٩)
شلش، علي. اليهود والماسونية (القاهرة ١٩٨٦)
شلش، علي. الماسونية في مصر (القاهرة ١٩٨٣)

الشهابي، قتيبة. دمشق تاريخ وصور (دار النوري، دمشق ١٩٩٤)
الشهبندر، عبد الرحمن. بيان تأسيس حزب الشعب في دار الأوبرا (مطبعة دمشق ١٩٢٥)
الشهبندر، عبد الرحمن. ثورة سورية كبرى (دار الجزيرة، عمان ١٩٣٥)
الشهبندر، عبد الرحمن. رسائل عبد الرحمن الشهبندر (وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٢)
الشهبندر، عبد الرحمن. مقالات (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٣)
الشهبندر، عبد الرحمن. مذكرات وخطب (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٣)
شيخو، الاب لويس. السر المصون في شيعة الفرمسون (بيروت ١٩١٠)
شيلشر، ليندا. دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (دمشق ١٩٩٨)
صدقي، نهال. فخري البارودي في شعره ونثره (دار القدس، بيروت ١٩٧٤)
طلاس، مصطفى. الثورة العربية الكبرى (دمشق ١٩٧٨)
الطنطاوي، علي. الجامع الأموي في دمشق (دار الفكر، دمشق ١٩٦١)
الطنطاوي، علي. قصص من الحياة (دار الدعوة، دمشق ١٩٥٨)
الطنطاوي، علي. مع الناس (المكتبة الأموية، دمشق ١٩٦٠)
الطنطاوي، علي. صور وخواطر (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٢)
عثمان، هاشم. المحاكمات السياسية في سورية (منشورات رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٤)
عثمان، هاشم. الصحافة السورية: ماضيها وحاضرها (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٧)
عثمان، هاشم. تاريخ سورية الحديث (منشورات رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠١٢)

عثمان، هاشم. الأحزاب السياسية في سورية: السرية والعلنية (منشورات رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠١)
العجيلي، عبد السلام. ذكريات أيام السياسة (جزءين، منشورات رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٠-٢٠٠٢)
العش، محمد بسام. دمشق بين الماضي والحاضر (مكتبة دمشق، دمشق ٢٠٠٥)
عطار، أحمد عبد الغفور. الماسونية (بيروت ١٩٧٤)
العطري، عبد الغني. أدبنا الضاحك (دار النهار، بيروت ١٩٧٠)
العطري، عبد الغني. عبقريات شامية (المطبعة الهندية، دمشق ١٩٨٦)
العطري، عبد الغني. عبقريات من بلادي (دار البشائر، دمشق ١٩٩٥)
العطري، عبد الغني. عبقريات وأعلام (دار البشائر، دمشق ١٩٩٦)
العطري، عبد الغني. عبقريات (دار البشائر، دمشق ١٩٩٧)
العطري، عبد الغني. اعترافات شامي عتيق (دار البشائر، دمشق ١٩٩٨)
العطري، عبد الغني. أعلام ومبدعون (دار البشائر، دمشق ١٩٩٩)
العطري، عبد الغني. حديث العبقريات (دار البشائر، دمشق ٢٠٠٠)
العظم، خالد. مذكرات خالد العظم (ثلاثة اجزاء، دار المتحدة للنشر، بيروت ١٩٧٢)
العظمة، عبد العزيز. مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها (منشورات رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٨٧)
العظمة، بشير. جيل الهزيمة (منشورات رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١)
علاف، أحمد فهمي. دمشق في مطلع القرن العشرين (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٧٦)

العلبي، أكرم حسن. خالد العظم (دار شهرزاد، دمشق ٢٠٠٥)
عوض، عبد العزيز محمد. الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤-١٩١٤ (دار المعارف، ١٩٦٩)
العياشي، محمد غالب. الإيضاحات السياسية وأسرار الإنتداب الفرنسي (أشقر اخوان، بيروت ١٩٥٥)
فارس، جورج. من هم في العالم العربي (مكتب الدراسات السورية، دمشق ١٩٥٨)
الفرحاني، محمد. فارس الخوري وأيام لا تنسى (دار الغد، بيروت ١٩٦٥)
فرزت، محمد حرب. الحياة الحزبية في سورية (دار الرواد، دمشق ١٩٥٥)
قاسمية، خيرية. الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨-١٩٢٠ (القاهرة ١٩٧١)
قدري، أحمد. مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى (وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٣)
قرقوط، ذوقان. تطور الحركة الوطنية في سوريا ١٩٢٠-١٩٣٩ (دار الطليعة، بيروت ١٩٧٥)
قصاب حسن، نجاة. صانعو الجلاء في سورية (شركة المطبوعات، بيروت ١٩٩٩)
قصاب حسن، نجاة. جيل الشجاعة حتى عام ١٩٤٥ (مطبوعات ألف باء، دمشق ١٩٩٤)
القلعجي، قدري. الثورة العربية الكبرى (بيروت ١٩٩٨)
كرد علي، محمد. خطط الشام (ستة أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٩-١٩٧١)

كرد علي، محمد. المذكرات (أربعة اجزاء، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٤٨-١٩٥١)
كيالي، نزار. دراسة في تاريخ سورية المعاصر (دار طلاس، دمشق ١٩٩٧)
الكيلاني، عبد الرحمن. رد الكتلة الوطنية على بيان المفوض السامي الفرنسي (دار العلمية، حلب ١٩٣٣)
مالك، حنا. مذكرات (مخطوط غير منشور)
المدني، محمد نمر. وثائق جمال باشا (دار الكوثر، دمشق ١٩٩٦)
مردم بك، سلمى. أوراق جميل مردم بك (شركة المطبوعات، بيروت ١٩٩٤)
المعلم، وليد. سوريا ١٩١٨-١٩٥٨: التحدي والمواجهة (دار عكرمة، دمشق ١٩٨٥)
المعلم، وليد. سوريا ١٩١٦-١٩٤٦: الطريق الى الحرية (دار طلاس، دمشق ١٩٨٨)
مكاريوس، شاهين. كتب عن الماسونية (القاهرة ١٩٩٤)
مكاريوس، شاهين. الأسرار الخفية في الجمعية الماسونية (لبنان ١٩٨٣)
مكاريوس، شاهين. الآداب الماسونية (لبنان ١٩٨٣)
الملوحي، عدنان. أيام الشام (دمشق ١٩٩٤)
الملوحي، عدنان. الطريق الى دمشق: مذكرات (دار الشمال، دمشق ١٩٩٢)
الملوحي، عدنان. بين مدينتين: من حمص الى الشام (منشورات رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩٠)
منصور، عبد الكريم. عظماء ومشاهير اغتالتهم الماسونية (دمشق ٢٠١١)
موسى، سليمان. المراسلات التاريخية: ١٩١٤-١٩١٨ (عمان ١٩٧٣)

موسى، سليمان. الثورة العربية الكبرى (دار الثقافة والفنون، عمان ١٩٦٦)
الميداني، محي الدين. الثورة العربية على الدولة العثمانية (دار راصد، بيروت ١٩٣٣)
نعيسة، يوسف. مجتمع مدينة دمشق (جزءين، دار طلاس، دمشق ١٩٩٤)
نعيسة، يوسف. يهود دمشق (دار المعرفة، دمشق ١٩٩٤)
هاشم، نعمت كاظم. الملك فيصل الأول والانكليز والاستقلال (دار العربية، بيروت ١٩٨٨)
يونس، عبد اللطيف. مذكرات الدكتور عبد اللطيف يونس (دار العلم، دمشق ١٩٩٢)

مراجع أجنبية:

Andelman, David. ***A Shattered Peace: Versailles 1919 and the Price We Pay Today*** (John Wiley & Sons, 2008).

Antonius, George. ***The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*** (Hamilton, 1938).

Batatu, Hanna. "***Some observations on the social roots of Syria's ruling military group***" (Middle East Journal, 35, Summer 1981).

Batatu, Hanna. ***Syria's Peasantry: The Descendants of its Lesser Rural Notables and their Politics*** (Princeton University Press, 1999).

al-Barazi, Husni. "***Memoirs of Prime Minister Husni al-Barazi***" Oral History Project at the (American University of Beirut, 1969).

Ben Gurion, David. ***My Talks with Arab Leaders*** (Keter Books, 1973)

Blum, William. ***Killing Hope*: *US military and CIA interventions since World War II*** (Zed Books, 2003)

Burton, Isabel. ***The Inner life of Syria, Palestine, and the Holy Land*** (King, 1875)

Caplan, Neil. ***Futile Diplomacy***, 3 volumes (Frank Cass: London, 1983, 1997)

Cleveland, William. ***A history of the modern Middle East*** (Westview Press, 2009)

Cleveland, William. ***The making of an Arab Nationalist*: *Ottomanism and Arabism in the life and thought Sati al-Husari*** (Princeton University Press, 1972).

Cleveland, William. ***Islam against the West*: *Shakib Arslan and the Campaign for Islamic Nationalism*** (Al-Saqi Books, 1995).

Coil, Henry Wilson. ***A comprehensive view of Freemasonry*** (Macoy Pub, 1973)

Combes, Andre. ***Le Grand Orient de France au XIXe siècle*** (Editions Maconniques de France, 2000, 2001)

Commins, David. ***Historical Dictionary of Syria*** (Scarecrow Press, 2004).

Cooper, Chester. ***The Lion's Last Roar*** (Harper & Row, 1965).

Dawn, Ernest. ***From Ottomanism to Arabism*: *Essays on the Origins of Arab Nationalism*** (University of Illinois Press, 1973)

De Novo, John. ***American Interests and Policies in the Middle East 1900-1939*** (University of Minnesota Press, 1963)

Dedopulos, Tim. ***The Brotherhood*: *Inside the secret world of the Freemasons*** (Thunder Mouth's Press, 2006)

Deringil, Selim. ***The Well-Protected Domains*: *Ideology and Legimation of Power in the Ottoman Empire 1876-1909*** (IB Tauris, 2011).

Doran, Michael. ***Pan-Arabism before Nasser*** (Oxford University Press, 1999)

Fromkin, David. ***A Peace to End all Peace*: *Creating the Modern Middle East 1914-1922*** (Deutsch, 1989)

Gaunson, A.B. ***The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria 1940-1945*** (Palgrave Macmillan, 1987)

Grainger, John. ***The Battle for Syria 1918-1920*** (Boydell press, 2013)

Gould, Robert Freke. ***The history of Freemasonry*: *its antiquities*, *symbols*, *constitutions*, *customs***, 4 volumes (Yorston Co, 1884-1889).

Gouraud, Henri. ***La France en Syrie*** (Paris, 1922).

Harland-Jacobs, Jessica. ***Builders of Empire*: *Freemasons and British Imperialism 1717-1927*** (University of North Carolina Press, 2007)

Hitti, Philip. ***History of Syria*: *Includes Lebanon and Palestine***, (Macmillan Company 1951)

Hopwood, Derek. ***Syria*** 1945-1986: ***Politics and Society*** (Unwin Hyman 1988)

Hopwood, Derek. ***Tales of Empire: The British and the Middle East 1880-1952***, (IB Tauris 1989)

Hourani, Albert. ***Great Britain and the Arab World***, (J. Murray 1945)

Hourani, Albert. ***Minorities in the Arab World*** (Oxford University Press 1947)

Hourani, Albert. ***Syria and Lebanon: a political essay*** (Lebanese Bookshop 1968)

Hourani, Albert. ***Europe and the Middle East*** (Macmillan 1980)

Hourani, Albert. ***Arabic Thought in the Liberal Age 1798-1939*** (Cambridge University Press 1983)

Hourani, Albert. ***A History of the Arab People*** (Belknap Press 2010)

Keenan, Brigid. ***Damascus: Hidden Treasures of the Old City*** (Thames and Hudson, 2000)

Jacob, Margaret. ***Living the Enlightenment: Freemasonry and Politics in Eighteenth Century Europe*** (Oxford University Press, 1991)

Jamali, Mohammed Fadhel. ***Inside the Arab Nationalist Struggle*** (IB Tauris, 2013)

Kayali, Hasan. ***Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism, and Islamism in the Ottoman Empire 1908-1918*** (University of California Press, 1997)

Khoury, Philip. ***Syria and the French Mandate: The politics of Arab nationalism 1920-1945*** (Princeton University Press 2014)

Khoury, Philip. ***Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920*** (Cambridge University Press, 1983)

Knight, Stephan. ***The Brotherhood*: *the secret world of the Freemasons*** (Granfton, 1985)

Lawrence, TE. ***The Seven Pillars of Wisdom*** (J. Cape 1942)

Longrigg, Stephen Hemsley. ***Syria and Lebanon under the French Mandate*** (Oxford University Press, 1953)

Lorey, Eustache de. ***Les mosaiques de la mosques des Omayyades a Damas***, (Librairie orientaliste, 1931)

MacKenzie, Norman. ***Secret Societies*** (Aldus, 1968)

Maoz, Moshe. ***Ottoman Reform in Syria and Palestine 1840-1861*** (Oxford University Press 1968)

Maoz, Moshe. ***Modern Syria*: *from Ottoman rule to pivotal role in the Middle East*** (Sussex 1999)

Mardam Bey, Salma. ***Syria's Quest for Independence 1939-1945*** (Ithaca Press 1997)

Marino, Brigitte. ***La Faubourg du Midan a Damas a l'epoque Ottomane*: *espace urbain*, *societe et habitat (1742-1830)*** (Institut francais de Damas, 1997)

McGlivery, Margaret. ***The dawn of a new era in Syria*** (Fleming H. Revell 1920)

Morris, Robert. ***Freemasonry in the Holy Land or handmarks of Hiram's builders*** (Knight & Leonard, 1877)

Moubayed, Sami. ***Damascus Between Democracy and Dictatorship*** (University Press of America, 2000)

Moubayed, Sami. ***Steel & Silk: Men and Women Who Shaped Syria 1900-2000*** (Cune Press, 2005)

Moubayed, Sami. ***Syria and the USA: Washington's Relations with Damascus from Wilson to Eisenhower*** (IB Tauris, 2012)

Moubayed, Sami. ***The Politics of Damascus 1920-1946*** (Dar Tlass, 1998)

Neep, Daniel. ***Occupying Syria under the French Mandate*** (Cambridge University Press, 2012)

Palmer, Manly. ***The lost keys of Freemasonry*** (Penguin, 2006)

Pike, Francis. ***Empires at War: A short history of modern Asia since World War II*** (IB Tauris, 2011)

Provence, Michael. ***The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism*** (University of Texas Press, 2005)

Qattan, Najwa. ***Dhimmis in the Muslim Court: Documenting Justice in Ottoman Damascus 1775-1860*** (Ann Arbor, 1996)

Reilly, James. ***Origins of Peripheral Capitalism in the Damascus Region 1830-1914*** (Ann Arbor, 2008)

Salhi, Mohammad. ***Palestine in the evolution of Syrian nationalism 1918-1920*** (Middle East Documentation Center, 2008)

Scharrahs, Anke. ***Damascene Ajami Rooms: Forgotten Treasures of Interior Design*** (Archetype Publications, 2013)

Seale, Patrick. ***The Struggle for Arab Independence: Riad el-Solh and the Makers of Modern Lebanon*** (Cambridge University Press 2010)

Seikaly, Samir. ***Abdul Rahman Shahbandar: the beginning of a nationalist career*** (AUB 1986)

Shambrook, Peter. ***French Imperialism in Syria*** (Ithaca Press 1999)

Shorrock, William. ***France in Syria and Lebanon 1901-1914: Pre-war origins of the Mandate*** (Ann Arbor 1997)

Sommer, Dorothe. ***Freemasonry in the Ottoman Empire: a history of the fraternity and its influence in Syria and the Levant*** (IB Tauris, 2015)

Sommer, Dorothe & Onnerfors, Andreas. ***Freemasonry and Fraternalism in the Middle East*** (University of Sheffield, 2008)

Springett, Bernard. ***Secret sects of Syria and Lebanon: a consideration of their origin, creeds, and religious ceremonies*** (Allen & Urwin, 1922)

Steinmetz, George Harold. ***Freemasonry: its hidden meaning*** (Macoy Pub, 1976)

Shlaim, Avi. ***The Politics of Partition: King Abdullah, the British, and the Zionists and Palestine 1921-1951*** (Oxford University Press 1999)

Thomas White, Benjamin. ***The emergency of minorities in the Middle East: The politics of community in French Mandate Syria*** (Edinburgh University Press 2011)

Thompson, Elizabeth. ***Colonial Citizens: Republican Rights, Paternal Privileges, and Gender in French Syria and Lebanon*** (Columbia University Press 2000)

Tibawi, Abdul Latif. ***American interests in Syria*** 1800-1901: ***A study of education, literacy, and religious work*** (Counterpoint 1966)

Torrey, Gordon. ***Syrian Politics and the Military 1945-1958*** (Ohio State University Press, 1964)

Twain, Mark. ***The Innocents Abroad*** (American Publishing Co, 1869)

White, Paul J and William S. Logan. ***Remaking the Middle East*** (Bloomsbury Academic, 1997)

Zeine, Zeine. ***The Struggle for Arab Independence: Western diplomacy and the rise and fall of Faisal's kingdom in Syria*** (Caravan Books, 1977)

كلمة شكر

أود أن أشكر جميع الأصدقاء والزملاء الذين ساهموا بانجاز هذا الكتاب، وأبدأ بمدقق الكتاب الصديق قاسم شاغوري وكل من راجع المخطوط من بعده، في دمشق السادة جميل مراد وعامر نعيم الياس وفادي اسبر والسيدة عبير سهيل جمل، وفي بيروت الأصدقاء رولاند برنس وعامر مطر وعمر سلوم. كما جرت العادة منذ عشرين سنة، كان الصديق سحبان عبد ربه متفانياً في وقته ودعمه، واخص بالذكر الصديق بسام داغر، ذلك المفكر الحر وزميلي في رابطة خريجي الجامعة الأميركية في بيروت، الذي كان أحد أهم محركي البحث لهذا الكتاب منذ يومه الأول. أما في جمع الوثائق فقد قام كل من السيد وفيق رضا سعيد والطبيب نقولا شاهين والأمير جعفر الجزائري بفتح دفاتر ووثائق عائلاتهم للاستفادة منها، وقدم السيد نقولا أباجي مساعة كبيرة في جمع الوثائق والصور. إضافة أرغب بشكر العلامة الأستاذ تاج الدين العم علي، الذي لولا علمه وعمله ومحبته لما كان لهذا الكتاب ان يرى النور. في الختام، شكر خاص للوالد الكريم، ذلك التاجر الدمشقي العتيق الذي علمني محبة هذه المدينة، والوالدة ميادة العلبي، تلك القديسة الجميلة، التي أصبحت مع مرور الأيام تشبه دمشق، بحسنها وحزنها، وبفرحها ودموعها.

كاتب ومؤرخ، مؤسس ورئيس مجلس أمناء «مؤسسة تاريخ دمشق»، المعنية بالحفاظ على إرث العاصمة السورية المهدّد بالاندثار إما بسبب الحرب أو الإهمال، وتشجيع البحث العلمي والتوثيق المتعلق بتاريخ المدينة وتدريب جيل جديد من المؤرخين الشباب في اختصاصات مختلفة من تاريخ دمشق.

- ٢٠٠٠-٢٠٠١: باحث في مركز الوثائق العربية في الجامعة الأميركية في بيروت.
- ٢٠٠٥- ٢٠١٦: عضو هيئة تدريسية في كلية العلاقات الدولية وعضو مجلس أمناء جامعة القلمون في مدينة ديرعطية.
- ٢٠٠٦ – ٢٠١٧: زميل باحث في جامعة سانت أنروز الإسكتلندية وأحد مؤسسي مركز الدراسات السورية فيها.
- ٢٠٠٦-٢٠١١: رئيس تحرير مجلة «فورورد» السورية الناطقة بالإنكليزية.
- ٢٠١٢-٢٠١٣: باحث وخبير في الشؤون السورية في مركز كارنيغي لدراسات السلام الدولي.
- ٢٠١٥- ٢٠١٦: كبير مستشاري مؤسسة الأمير عبد القادر الجزائري للثقافة والتراث.
- ٢٠١٢- ٢٠١٦: مستشار دولي في الشؤون السورية.
- يكتب في صحيفة السفير اللبنانية والهافنغتون بوست الأميركية والغولف

نيوز الإماراتية، وكان قبل سنوات من كتّاب جريدة واشنطن بوست العالمية (٢٠٠٥-٢٠٠٩).

- درس في الجامعة الأميركية في بيروت وجامعة إكستر البريطانية، حيث يحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ عن أطروحته «سورية مطلع عهد الاستقلال».

صدر له:

- «سورية بين الديمقراطية والديكتاتورية» (الولايات المتحدة، ٢٠٠٠).
- «فولاذ وحرير: نساء ورجال صنعوا تاريخ سورية الحديث» (الولايات المتحدة، ٢٠٠٥).
- «سورية والولايات المتحدة: من ويلسون الى أيزنهاور» (لندن، ٢٠١٢).
- «تحت الرايات السود» (لندن، ٢٠١٥).
- «تاريخ دمشق المنسي: أربع حكايات ١٩١٦-١٩٣٦» (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠١٦).

فهرس الأعلام

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

فهرس الأماكن

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي